أجاثا كريستي

جثة على الثلوج

دار النجمة للنشر والتوزيع

جثّة على الثلوج

وقصص أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

جثّة على الثلوج
وقصص أخرى

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

جثة على الثلوج

-١-

- أنا آسف جداً.

- سيد بوارو، أرجوك ألاّ تتسرع بالحكم على الأشياء. ثمّة أمور بالغة الخطورة تتصدر اهتمامات الدولة، ولسوف يُقدَّر تعاونك معنا أبلغ تقدير.

- شكراً لما أبديت من مشاعر، غير أنني لا أستطيع أن أقوم بما تسألني القيام به، وبالذات في هذا الفصل من السنة.

وعاد السيد جيسموند يقاطعه محاولاً إقناعه: إنها أيام الاحتفال بعيد الميلاد، وسيكون هذا الاحتفال بالعيد جرياً على التقاليد القديمة في الريف الإنجليزي.

ولم يؤد الحديث عن الريف الإنجليزي إلى الغرض المطلوب، بل كان من شأنه أن باعد بين هيركيول بوارو وبين الاستجابة إلى ما يريده محدثه منه. وكان تعقيب بوارو: أنا لست إنجليزيّ النشأة، وعيد الميلاد في بلادي عيد الأطفال الصغار، أما نحن الكبار فعيدنا الذي نحتفل به هو عيد رأس السنة.

– إن عيد الميلاد في إنكلترا هو عيد الجميع، والاحتفال به تقليد إنجليزي راسخ، وأؤكد أنك ستجد متعة إذا ما اشتركت في الاحتفال به في كنجز لاسي. ذلك القصر الرائع كما تعرف، إن أحد أجنحته يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر.

وبدلاً من أن يقتنع بوارو زاده هذا الحديث نفوراً وأثار في ذاكرته ما سبق أن تعرض له من متاعب في قصور الريف الإنجليزي التاريخية. وبعد أن ألقى نظرة على مسكنه العصري وما أحاط به نفسه من أسباب الدعة والراحة قال: أنا لا أرحل عن لندن في الشتاء.

فرمق السيد جيسموند زميله بنظرة أتبعها بأخرى إلى بوارو ثم قال: سيد بوارو، أعتقد أنك لا تقدر مدى جدية الأمر.

وكان الزائر الثاني ملتزماً جانب الصمت حريصاً على عدم الاشتراك في الحديث الدائر بين الرجلين، وكان جالساً يحدق النظر في حذائه المصقول اللامع. كان شاباً لا يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر، أسمر الوجه، يبدو عليه بجلاء مدى ما تعتمل به نفسه من أسى.

وعقّب هيركيول بوارو على ما سمعه من جيسموند بقوله: أجل، أجل؛ إن الأمر جد خطير بكل تأكيد، وإني لمشفق على سموّه من صميم قلبي ومقدّر لدقة مركزه.

وكان بوارو يتجه إلى ضيفه الشاب، غير أن السيد

جيسموند قال له: إن الوضع بالغ الحرج والموقف دقيق.

فتحول بوارو بنظرته عن زائره الشاب إلى محدثه يرمقه بعينين نافذتين لأنه يختلف عن كثيرين ممن التقى بهم في حياته العملية، ثم انبرى قائلاً: يمكنك أن تجد في الشرطة بغيتك.

- لا، إن الشرطة لا تصلح في مثل هذا الموقف؛ إنها تلتزم بما يفرضه القانون من إجراءات، ونحن لا نملك بين أيدينا دليلاً. إنها مجرد شكوك، وأنت تدرك مثل هذه المواقف.

فعاد هيركيول بوارو ليردد: نعم، أدرك مثل هذه الأمور بما من شأنه أن يحملني على الشعور بمدى ما تلقونه من عنت.

وإذا كان قد دار بخلده أن ما يبديه من مشاعر رقيقة سوف يعني شيئاً لزائريه فإنه يكون مخطئاً بذلك؛ فهما لا يريدان منه مجاملة لفظية رقيقة بل يريدان منه مساعدة منتجة.

وعاد السيد جيسموند ليتحدث عن مباهج عيد الميلاد الإنجليزي: لم يعد لأعياد الميلاد رونقها القديم، غير أن أعياد الميلاد الإنجليزية لا تزال على معناها الصحيح، فجميع أفراد الأسرة يجتمع شملهم حول شجرة عيد الميلاد وحول مائدته التي تفخر بما عليها من ديك رومي وفطيرة البرقوق... وتمثال لرجل الثلوج خارج النافذة.

وتدخل هيركيول بوارو معقّباً: لإقامة تمثال من الثلوج

يجب أن تتوفر لك الثلوج.

- كنت أتحدث اليوم إلى صديق بمصلحة الأرصاد، وقد علمت منه بأنه من المرجح أن تتساقط الثلوج في عيد الميلاد.

ولم يكن من الصواب ترديد هذا الاحتمال، إذ انبرى بوارو قائلاً: ثلوج في الريف! هذا يعني برداً قارصاً في ذلك القصر الحجري الفسيح.

- لا، لقد تغيرت الأحوال في السنوات الأخيرة بعد إدخال نظام التدفئة المركزية.

ولأول مرة يتساءل بوارو باهتمام: هل أدخلوا نظام التدفئة المركزية في كنجز لاسي؟

فانتهز جيسموند الفرصة السانحة قائلاً: نعم، وإنه لنظام تدفئة رائع، وأؤكد لك يا عزيزي بوارو أن كنجز لاسي هو خير مكان يمكن أن تقيم فيه في الشتاء.

- لم أكن أتوقع سماع ذلك عن كنجز لاسي.

وحاول السيد جيسموند أن يواصل بقوله في شبه تضرع: أنت خير من يقدّر مدى ما نتعرض له من حرج وما نحن فيه من مأزق مستحكم الحلقات.

وأومأ هيركيول بوارو برأسه إيجاباً.

وللحقّ فإن المشكلة ليست من المشكلات اليسيرة،

فهذا الشاب له شأنه؛ فهو الابن الوحيد لحاكم إحدى الدول الشرقية، وقد وصل إلى لندن منذ بضعة أسابيع، وكانت بلاده تجتاز فترة من القلاقل والتذمر. وقد كان الرأي العام محافظاً على ولائه للأب الذي ظل ملتزماً بأساليب الحياة الشرقية، إلا أنه كان في شك من أمر الجيل الجديد. فقد كانت لهذا الجيل نزواته الغربية التي لم تكن لتحظى بأي تأييد. وكانت خطوبة الابن قد أُعلنت حديثاً، وكان المفروض أن يتزوج من ابنة عم له، وهي فتاة في مقتبل العمر كانت حريصة على ألا تتظاهر بأية ميول غريبة في بلادها على الرغم من أنها تلقت تعليمها في كامبردج. ثم أُعلن عن يوم الزّفاف. وسافر الأمير الشاب إلى إنكلترا حاملاً معه بعض حُليّ الأسرة الذائعة الصيت لإعادة صياغتها عصرياً، وكان من ضمن هذه الحُليّ ياقوتة ثمينة نزعت من قلادتها وثُبّتت في صياغة جديدة بمعرفة كارتييه، الجواهرجي الشهير.

ثم كان ما كان من أحداث، إذ لم يكن من المستبعد ألا يرتكب شاب قد أوتي مثل هذا الثراء من حماقات الصبا ما يتفق مع نزواته وميوله، وفي غمرة المتعة والانبهار أطلع الأمير صديقته على الياقوتة الثمينة في صياغتها الجديدة، ثم ما كان منه إلا أن جانَب الصواب بنزوله على رغبتها، فاستجاب إلى سؤالها إياه أن يأذن لها بالتحلّي بالياقوتة لليلة واحدة فقط. وبينما كانا جالسين إلى مائدة العشاء استأذنت الصديقة في التغيب بضع دقائق لتصلح من زينتها، وانقضت دقائق ودقائق ولكن السيدة لم تعد. وكانت قد غادرت المبنى من أحد أبوابه

الأخرى لتختفي حاملة معها الياقوتة النادرة.

تلك هي الحقائق التي لم يكن من المستطاع إعلانها على الملأ دون التعرض لأسوأ النتائج والعواقب. إن هذه الياقوتة كانت أكثر من مجرد حجر كريم إذ كانت قيمتها التاريخية التي تُضفي عليها من الأهمية ما من شأنه أن يستتبع ضرورة إحاطة ظروف اختفائها بالكتمان خشية ما قد يؤدي إليه إعلان ذلك من عواقب سياسية.

ولم يكن السيد جيسموند بالرجل الذي يُفصح عن هذه الحقائق بلغة مبسطة؛ بل كان سرده لها في صورة منمقة زاخرة المعاني. ولم يكن هيركيول بوارو ليدري من حقيقة أمر السيد جيسموند شيئاً. لقد التقى بالكثير ممن هم على شاكلته، ولم يكن يدري ما إذا كان للسيد جيسموند علاقة بوزارة الداخلية أم بوزارة الخارجية أم بغيرهما من أجهزة سرية تختص بمثل هذه الشؤون التي تتصل بوزارة الكومنولث. ومهما يكن من أمر، فمن المتعين إماطة اللثام عن اختفاء الياقوتة والعمل على استعادتها. وقد ألحّ السيد جيسموند في أن السيد بوارو هو الرجل الذي بوسعه أن يقوم بذلك دون غيره.

وكان تعقيب هيركيول بوارو وهو يومئ برأسه موافقاً: ربما كان ما تقوله صحيحاً، غير أنك لم تحدثني بالكثير مما يجب أن يكون أساساً للقيام بهذه المهمة. إن كل ما سمعته منك مجرد افتراضات وشكوك لا تُغْني.

- سيد بوارو، أنت خير من يدرك حقيقة مواهبك، وإنك

لقادر على صنع المعجزات.

- ولكنني لا أوفَّق دائماً.

غير أن هذا كان مجرد تواضع مكشوف؛ فلقد كان من المعروف عن بوارو أنه لا يضطلع بمهمة ما إلا كان التوفيق حليفه. واستطرد السيد جيسموند قائلاً: إن سموّه ما زال في مقتبل العمر، وإنه لمن المؤسف أن تدمر حياته لمجرد مسلك طائش.

ونظر بوارو إلى الشاب المطأطئ برأسه في إشفاق قائلاً: إن سنّ الشباب هو فترة الحماقات والطيش، ومن المسلَّم به أن ما يصدر عن الرجل العادي في هذه الفترة ليس بذي بال، أما ما يصدر عمن يكون في مثل مركزك فتختلف نتائجه وملابساته، ثم إن زواجك القريب يضاعف...

فانبرى الشاب مقاطعاً وقد تدفقت الكلمات من بين شفتيه: هذا هو بيت القصيد وهنا تكمن المشكلة؛ إن زوجتي المقبلة لا تعرف من الحياة سوى وجهها الجاد، وهي شديدة التزمت بعيدة الآمال وترجو لبلادنا في عهدي ما لم يُتَح لها في عهد والدي من تقدم وفلاح، وإنني لواثق من أنها لن تغفر لي ما سوف ينجم عن اختفاء هذه الياقوتة من فضيحة تتناسب مع أهميتها التاريخية وما سيُسفك في سبيلها من دماء وتزهق من أرواح.

فأطرق هيركيول بوارو قليلاً، ثم تطلع إلى السيد جيسموند قائلاً: أرجو ألا يصادفنا شيء من هذا القبيل؟

وبعد أن تحرك السيد جيسموند في مقعده قلقاً قال: لا، لن يكون ثمة شيء من ذلك.

- وما أدراك؟ إن من يمتلك الياقوتة الآن لن يحجم عن ارتكاب أي شيء في سبيل الاحتفاظ بها ما دام لها هذا التاريخ الدموي الطويل.

- لا أعتقد أن شيئاً مما يجول في خاطرك يمكن أن يعترض سبيلك.

- إن من دأبي أن أفترض جميع الاحتمالات.

فتأمله السيد جيسموند بنظرات فاحصة قبل أن يقول له: سيد بوارو، أعتقد أننا اتفقنا. متى ستسافر إلى كنجز لاسي؟

- وكيف أفسّر وجودي؟ وبماذا أبرّر زيارتي؟

فابتسم السيد جيسموند ابتسامة الواثق من نفسه قائلاً: يمكن تدبير ذلك دون عناء. دع لي هذا الأمر وثق أن كل شيء سيبدو طبيعياً، وسوف تجد آل لاسي قوماً ترتاح النفس إليهم.

- وهل أنت واثق مما قلته عن جهاز التدفئة؟

- كل الثقة، وأؤكد لك أنك ستجد في القصر كل وسائل الراحة.

- إذن فقد قبلت القيام بما سألتني إياه.

* *

-٢-

كانت درجة حرارة قاعة الاستقبال الفسيحة بقصر كنجز لاسي محتملة حينما كان هيركيول بوارو يتحدث إلى السيدة لاسي بجوار إحدى نوافذ القاعة المسدلة ستائرها، وكانت السيدة لاسي تستمع إلى بوارو وتتحدث إليه بصوت ساحر عميق: أرجو أن تستمتع معنا بسهرة عيد الميلاد، إنها سهرة عائلية بحتة. وستضم فقط حفيدتي وأحد أصدقائي وبردجيت ابنة أخي وديانا ابنة عمي ودافيد ويلفين الصديق القديم، ولقد علمت من أدوينا موركومب بأن هذا هو ما تريده، سهرة عيد الميلاد التقليدية، وهذا ما سوف نحققه لك فعلاً؛ فزوجي -كما تعلم- يعيش في الماضي، وهو يحب أن يرى كل شيء كما كان يجده حينما كان صبياً في الثانية عشرة من عمره يقضي أيام إجازته هنا، وقد حرصنا على تزيين شجرة عيد الميلاد وعلى عدم إغفال شيء مما يجب أن تضمه المائدة، من حساء ورومي وفطائر حلوى البرقوق بكل ما يوضع فيها من أشياء.

- إنك تثيرين شهيتي يا سيدتي.

- أعتقد أننا سنتعرض جميعاً لعسر هضم غير مألوف في مساء الغد.

وأمسكت عن مواصلة الكلام بعد أن بلغت مسامعها

أصوات ضحكات عالية خارج النافذة، ثم قالت: ترى ماذا يفعلون؟ لعلهم يلهون ويعبثون. كنت أخشى أن يضيق الشباب ذرعاً بقضاء عيد الميلاد هنا، غير أنني أسمع ما يدل على عكس ما خشيت. أرجو أن نوفق في إرضاء الجميع.

- سيدتي، أنا شاكر لك ولزوجك أن أتحتما لي فرصة حضور هذه المأدبة العائلية كأحد أفراد الأسرة.

- إنه ليسرّنا أن تشاركنا هذه المناسبة، وإذا ما لمست من هوراس بعض الخشونة فلا تلقِ بالاً لمسلكه، فهذه هي طباعه.

أما ما عقّب به زوجها، الكولونيل هوراس لاسي، على دعوة بوارو فقد كان: لست أدري ما الذي دعاك لدعوة مثل هذا الرجل الأجنبي ليعكر علينا صفو عيد الميلاد؟ ولماذا لم توجهي دعوتك له لزيارتنا في يوم آخر؟ إنني لا أحب هؤلاء الأجانب. فليكن، ما أظن إلا أن هذه هي رغبة أدوينا موركومب. بودّي لو عرفت ما الذي حدا بها إلى ذلك، ولماذا لم توجه إليه الدعوة في منزلها؟

فأجابته السيدة لاسي: لأنك تعرف جيداً أن أدوينا تذهب دائماً إلى كلاردج.

تفرس فيها زوجها قائلاً: أيما، هل تدبرين شيئاً؟

- أدبر شيئاً؟ كلا بكل تأكيد. وماذا تراني مدبرة؟

فضحك الكولونيل لاسي من الأعماق وهو يقول: أيما،

كلما ازددتِ تظاهراً بالبراءة ازددتُ اقتناعاً بأنك تدبرين شيئاً. أنا خير من يعرفك.

وبعد أن استعرضت السيدة لاسي ما كان بينها وبين زوجها واصلت حديثها مع بوارو قائلة: قالت أدوينا إنها تعتقد أن بوسعك مساعدتنا. لست أدري كيف سيتأتّى لك هذا، وإن كانت قد قالت إن بعض أصدقائها قد امتدح جهودك في قضية على غرار قضيتنا. لعلك لا تعرف شيئاً عما أتحدث به إليك؟

فتطلع إليها بوارو مشجّعاً. كانت السيدة لاسي تناهز السبعين من عمرها، يتوّج رأسها شعرها الناصع البياض، وهي تجلس منتصبة القامة يفيض وجهها صحة وتتألق عيناها الزرقاوان ذكاءً وعزماً.

وأخيراً قال لها: سيدة لاسي، إذا كان ثمّة ما أستطيع القيام به فهذا سيكون من دواعي سروري. إن الأمر يتصل بنزوة فتاة تعسة كما فهمت.

- أجل، وإنه يبدو أمراً شاذاً أن تجدني مضطرة إلى أن أتحدث به إليك. ومهما يكن من أمر فإنك تُعَدّ غريباً عنا.

- وأجنبي أيضاً.

- نعم، وهذا مما يجعل الأمر أيسر سبيلاً. لقد بدا من حديث أدوينا أنها تعتقد أنك ربما تعرف شيئاً عن هذا الشاب المدعو ديزموند لي وورتلي.

أطرق بوارو لحظة استعرض فيها كياسة السيد جيسموند وقدرته على استخدام ليدي موركومب لتنفيذ أغراضه، ثم انبرى قائلاً: إنه لا يحظى بسمعة طيبة كما سمعت عنه.

- نعم، إن سمعته سيئة. غير أن هذا لن يفيد سارة في شيء، ولن يجدي نفعاً أن نردد على مسامع الفتيات شيئاً عن سوء سمعة الرجال.

- الحق معك.

واستطردت السيدة لاسي قائلة: في أيام صباي كانوا يحذّروننا من الشباب، وكان هذا يضاعف من اهتمامنا بهم فكنا نتوق إلى مراقصتهم أو الانفراد بهم. إنه حب الاستطلاع.

وضحكت لمجرد الذكرى، ثم تطلعت شاردة الذهن فقال لها: خبريني بما يضايقك.

- لقد قُتل ولدنا في الحرب، ثم توفيت زوجة ابني حين ولدت سارة، الأمر الذي استتبع إقامتها معنا ورعايتنا لها. وربما كنا غير موفّقَين في تنشئتنا لها، غير أننا كنا نعتقد أنه من الأفضل أن نطلق لها العنان.

- أعتقد أن هذا أفضل، فالإنسان لا يمكن أن يعارض روح العصر.

- وهذا ما كنت أراه فعلاً. وانطلقت سارة فيما تنطلق فيه غيرها من فتيات ممن تسلكن سلوكاً شاذاً، فراحت ترتدي

هذه الثياب المزرية وتلك الجوارب السوداء أو الخضراء الزاهية وتنطلق بها دون أن تغتسل أو تمشط شعرها.

- طبقاً لأسلوب العصر، هذا هو مسلك شباب اليوم.

- نعم، إنه مسلكهم جميعاً. ولم أُلقِ بالاً لهذا الشذوذ في أول الأمر، إلى أن صادقت ديزموند لي وورتلي الذي تُعرف عنه سمعته السيئة. وهو ممن يعيشون في حياتهم على ما يبتزونه من الفتيات الثريات، وله تأثير عميق على الفتيات اللاتي يُفتَنّ به. ولقد كان على وشك الزواج من إحدى فتيات الأسر الكبيرة لولا أن أهلها أسرعوا بوضعها تحت الوصاية. وهذا هو عين ما يريد هوراس أن يفعله، وهو يقول إن هذا في مصلحتها. وإن كنت لا أُقرّه على هذا الرأي؛ وذلك لأنني واثقة من أنهما سيرحلان معاً إلى اسكتلندا أو الأرجنتين أو أي بلد آخر حيث يُعقد قرانهما أو لا يعقد، ويواصلان العيش معاً بوسيلة أو بأخرى. ومهما يكن من أمر ما يقال، إلا أن العبرة بالنتائج الواقعية في مثل هذه الأحوال، كأن ينتظرا مولوداً. ولا يسعنا إزاء هذا إلا أن نسلّم بالأمر الواقع ونوافق على هذا الزواج، ثم -وهذا غالباً ما يحدث- يكون الطلاق بعد عام أو عامين.

وبعد ذلك تعود الفتاة إلى منزلها حيث تتزوج بعد عام أو عامين من رجل رقيق الحاشية، غير أنه يعكر صفو هذه الحياة وجود مثل هذا الطفل (الذي ينشأ في كنف والدته) مهما كان هذا الزوج وديعاً.

أعتقد أنه كان من الأفضل أن نتبع ما كنا نتبعه في أيام صبانا، حين كنا نسلك سبيلاً وسطاً في علاقتنا بشبان ذلك العصر. وأذكر أنني كنت ألتقي خلسة بشاب يدعى تينيت لأقضي معه بضع ساعات بريئة، وكنت أستمتع بهذا اللقاء إلى أبعد حد. ثم كان أن باعدت الأيام بيننا، وحدث حينما التقيت به بعد أربعة أعوام أن تساءلت في دهشة عما كان يدعوني إلى الإعجاب به، فلقد بدا لي شاباً يبعث في النفس السأم.

فعقّب بوارو باقتضاب قائلاً: كثيراً ما يظن المرء أن أيام الصبا أحسن الأيام.

- نعم، لا أريد أن أثقل عليك. ومهما يكن من أمر فإنني لا أريد لسارة أن تتزوج من ديزموند لي وورتلي. لقد كانت تتبادل الإعجاب مع دافيد ويلفين، الذي يقيم هنا، وكنا نرجو أن يتم الزواج بينهما حينما يشبان عن الطوق، ولكنها ما عادت تميل إليه بعد أن سحرها ديزموند.

- معذرة سيدتي؛ إنني عاجز عن الإحاطة بحقيقة الموقف. هل يقيم المدعو ديزموند لي وورتلي في هذا القصر؟

- نعم، وأنا المسؤولة عن ذلك. لقد كان هوراس حريصاً على الحيلولة دون أي لقاء بينهما (سواء هنا أو في الخارج) ولكنني قلت لهوراس إنني أخالفه في هذا الرأي وإنه من الأفضل أن يدعو الشاب لقضاء عيد الميلاد مع أسرتنا. وكان بديهياً أن ينعتني زوجي بالجنون، غير أنني ألححت عليه

بضرورة الأخذ بمشورتي، فندع لهما فرصة اللقاء في منزلنا وفي جونا، على أن نحسن معاملته ونبالغ في إكرام وفادته فلعله يبدو في عينيها أقلّ مما كان يبدو في الخارج.

- أرى أن وجهة نظرك تفضل وجهة نظر زوجك لأكثر من سبب. إنها فكرة صائبة.

- أرجو أن يتحقق ذلك، ولا يبدو إلى الآن أنها ستؤتي ثمارها، غير أنه لم يمض على إقامته هنا سوى يومين. سيد بوارو، سأعترف لك بشيء هام: إنني أشعر بشيء من الإعجاب به. ولست أعني بقولي هذا أنني معجبة به فعلاً، بل أشعر بأنني مدفوعة إلى ذلك بفعل سحره! أجل، إنني أرى فيه ما تراه سارة، ولكني امرأة تقدم بها السن وتعدّدت تجاربها بحيث يتيسر لي صحة الحكم عليه بأنه لا خير فيه. وقد سألني ما إذا كان من الممكن أن يصطحب شقيقته لقضاء عيد الميلاد هنا بعد نجاح تلك الجراحة التي أجريت لها بأحد المستشفيات، وأخذ على عاتقه أن يقوم على رعايتها أثناء اعتكافها بغرفتها. ولعلك ترى معي أن هذه الرغبة كانت لفتة كريمة منه.

- إنها تدل على رقة كبيرة لا تتفق مع ما عرف عنه!

- لا أرى لذلك تعليلاً سوى أنه من الممكن أن يعطف الإنسان على أفراد أسرته، وفي الوقت نفسه لا يتورع عن الانقضاض على فتاة ثرية صغيرة. سوف تصبح سارة فتاة بالغة الثراء، ليس فقط بفضل ما سترثه منا (لأن كولين سيشاركها في ذلك) بل لأن والدتها كانت فاحشة الثراء وستؤول ثروتها

إلى سارة بمجرد بلوغها الحادية والعشرين من عمرها. إنها لم تتجاوز بعد العشرين، ومهما يكن من أمر تلك الجوانب الرقيقة التي تبدت في حنوّه على شقيقته إلا أنني لا أريده زوجاً لسارة.

- بناء على ما سمعته، أرى أن إتمام هذا الزواج يعد كارثة كبرى.

- هل تعتقد أنه من الممكن أن تساعدنا في هذا الأمر؟

- نعم، وإن كنت لا أحب أن أسرف في وعودي لأن أمثال السيد ديزموند لي ورتلي لا يشق لمهارتهم غبار، ومع ذلك فعلينا ألا نستسلم لليأس، وأعدك بأنني سأبذل أقصى ما في وسعي، على الأقل جزاء لكرم وفادتك.

ثم تطلع فيما حوله واستطرد قائلاً: لم أتوقع يوماً أن يتاح لي قضاء العيد في قصر منيف كهذا.

فاقتربت السيدة لاسي بوجهها منه قائلة: سيد بوارو، أتعرف ما تتوق إليه نفسي؟

- هلا حدثتِني بذلك يا سيدتي؟

- إنني أتوق إلى فيلا صغيرة عصرية زودت بكل وسائل الراحة، كوخ صغير خال من الدهاليز الطويلة والقاعات الفسيحة والأبهاء ذات الدرج العريض.

- هذا ما يجب أن يكون في الواقع.

- ولكن زوجي معجب بهذا القصر، وهو سعيد بإقامته فيه.

- بما يعني أنك تضحين بالكثير في سبيل تحقيق رغباته؟

- لا أرى في ذلك تضحية ما؛ لقد تزوجت وأقسمت أن أُسعد زوجي. ولقد كان خير زوج مما يجعلني راغبة في العمل على توفير كل أسباب السعادة له.

- إذن فسوف تواصلين إقامتك هنا؟

- نعم، ولقد أنفقت الكثير في سبيل أن أجعل من هذا القصر مكاناً موفور الراحة لا ينقصه من المبتكرات الحديثة شيء.

- يخيل إليّ أنكم تلقون عناء كبير في اليد العاملة بهذا القصر؟

- ليس إلى الحد الذي تحسّه. حقاً إن الخدمة بالمنازل أصبحت مشكلة معقدة يحاول الجميع أن يجد لها حلاً. إننا نلجأ إلى فتيات القرية للقيام بمختلف الخدمات: اثنتين في الصباح واثنتين لإعداد طعام الغداء وأُخريات في المساء، ومنهنّ من ترغب في العمل لبضع ساعات تنصرف بعدها. أما في المناسبات (كمناسبة عيد الميلاد) فإننا نسعد بقدوم السيدة روس الطاهية الممتازة. لقد اعتزلت العمل منذ نحو عشر سنوات ولكنها تسعدنا بقدومها في مثل هذه المناسبات.

ثم هناك بيفيريل.

- الساقي؟

- أجل. لقد اعتزل العمل هو الآخر ويقيم في كوخه الصغير على مقربة، ولكنه يصرّ -إخلاصاً منه- على القدوم للقيام بخدمتنا في عيد الميلاد على الرغم من تقدمه في السن، ولطالما كنت أشفق عليه من تكبد هذا العناء، وإن كنت لا أجرؤ على إعفائه من الحضور لكي لا أجرح شعوره.

ثم ابتسمت مستطردة: هذه هي مجموعتنا التي تتأهب لاستقبال عيد الميلاد.

ونهضت لتزيح ستارة النافذة، ثم عادت قائلة: وسيكون عيدَ ميلاد أبيض سعيداً، فلقد بدأت الثلوج في التساقط. ها قد رأيت الأولاد قادمين، يجب أن يتم التعارف بينكم الآن.

وقدمت إليهم السيد بوارو بما يليق من احترام. قدمته أولاً لكولين ومايكل، الحفيد الطالب وصديقه، الصبيين الأسمر والأشقر غير المتجاوزين الخامسة عشرة من عمرهما، ثم إلى ابنة العم، بريجيت، التي تفيض حيوية، السوداء الشعر والبالغة من العمر الخامسة عشرة أيضاً.

وجاء دور سارة فقالت السيدة لاسي: وهذه هي حفيدتي سارة.

وتأملها بوارو ليجدها فتاة ساحرة حمراء الشعر، وبدا له من مسلكها أنها عصبية المزاج وجريئة، وإن كانت قد أبدت

خالص الودّ لجدتها. وواصلت السيدة لاسي عملية التعارف قائلة: وهذا هو السيد لي ورتلي.

كان السيد لي ورتلي يرتدي حلة أقرب ما تكون إلى ما يرتديه صائدو الأسماك وسروالاً ضيقاً أسود اللون وقد أطال شعر رأسه. وعلى العكس من هذا الشاب كان الآخر الذي قُدِّم إلى بوارو على أنه دافيد ويليفين. كان هادئاً متماسكاً يبتسم في دعة ويعتني بنظافته إلى حد بعيد. ولم يبق من أعضاء الجماعة سوى الفتاة الأنيقة دينا ميدلتون، التي كانت تبدو قوية الشكيمة.

وحُمل الشاي إلى المجتمعين. وكان الكولونيل لاسي آخر القادمين فتناول قدحه من يد زوجته والتقط قطعتين من الفطائر، ثم ألقى نظرة ازدراء على ديزموند لي ورتلي واتخذ له مقعداً بعيداً عنه.

وكان لاسي رجلاً طويل القامة عريض المنكبين كث الحاجبين أحمر الوجه، وكان يبدو كمزارع أقرب منه إلى سيد هذا القصر. وانبرى قائلاً: لقد بدأت الثلوج في التساقط، سيكون عيد ميلاد أبيض.

وبعد الفراغ من تناول الشاي انصرف كل إلى شأنه، ورأى الصبيان وبريجيت أن يتجهوا إلى البحيرة ليتبينوا ما إذا كانت مياهها قد بلغت من التجمد حداً يتيح لهم التزلّج فوقها. وقال كولين في ذلك: ظننت أنه من الممكن أن نمارس التزلج فوقها هذا الصباح، غير أن هوكينز العجوز عارض في ذلك

مبالغة منه في الحذر كدأبه دائماً.

وعرضت ديانا ميدلتون على دافيد أن يقوما بجولة على الأقدام، وبعد أن تردد دافيد لحظة استقرت فيها عيناه على شعر سارة الأحمر، حيث كانت تقف إلى جانب ديزموند وقد استقرت ذراعها فوق ذراعه متأملة وجهه، قال: فليكن، هيا بنا.

فأسرعت ديانا تتأبط ذراعه وتتجه به صوب باب الحديقة، ثم انبرت سارة قائلة: ديزموند، هل نحذو حذوهما؟ إن الجوّ خانق هنا.

فقال لها ديزموند: ليست بي رغبة في مثل هذه الجولة، سأُحضر سيارتي لنذهب إلى حانة سبيكلدبور .

وترددت قبل أن تقول: فلنذهب إلى هوايت هارت إذن.

وهي وإن لم تفصح عن ذات نفسها، إلا أن سارة كانت عازفةً -في قرارة نفسها- عن التردد على أماكن اللهو المحلية برفقة ديزموند؛ فسيدات قصر كنجز لاسي لم يسبق لإحداهن أن ترددت على حانة سبيكلدبور، وهي إن أقدمت على شيء من هذا القبيل فإنها ستسيء إلى الكولونيل لاسي وزوجته أيّما إساءة. وإذا تراءى لديزموند أن يتساءل عن السبب في اعتراضها على حانة سبيكلدبور فإنها ستواجهه بالحقيقة: إنها لا تريد أن تُغضب جديها ما لم يكن ثمة ما يدعو إلى ذلك.

إنها لا تنسى شدة حنانهما عليها وعدم معارضة رغباتها مهما بدت شاذة غير مألوفة. ألم يدَعاها وشأنها حينما أرادت أن تقيم في تشلسي في مسكن خاص بها؟ أما جدّها فلو كان الأمر له وحده لما وافق على شيء من هذا القبيل.

لقد كانت تدرك تماماً حقيقة موقف جدها منها وحقيقة اتجاهاته بصفة عامة، فلم تكن دعوة ديزموند إلى قصر كنجز لاسي نتيجة لاقتراحه. إن الفضل في توجيه هذه الدعوة يرجع إلى إيما التي طالما غمرتها بحنانها ورقّتها.

وبعد أن مضى ديزموند ليُحضر سيارته أطلّت سارة من فرجة باب قاعة الاستقبال قائلة: سنتوجه إلى ماركت ليدبري لنتناول مشروباً في هوايت هارت.

فقالت السيدة لاسي معقبة: هذا أفضل. لقد ذهب دافيد وديانا في جولة سيراً على الأقدام، وهذا من دواعي سروري. لقد أحسنت ديانا صنعاً بقضاء العيد معنا. لقد ترملت في سن مبكرة؛ فهي لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها، وإني لأرجو أن توفّق إلى الزواج ثانية.

فحدجت سارة جدتها بنظرة حادة قائلة: إيما، ماذا تخططين؟

فأجابتها السيدة لاسي وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة: إنها خطتي المتواضعة، وأعتقد أنها ستكون خير زوجة لدافيد. بديهي أنني أدرك أنه كان مدلهاً بحبك، غير

أنني أرى أنكما على طرفي نقيض ولست أريد له أن يشقى في حياته الزوجية، ولذلك أرى أن ديانا خير من تناسبه.

- يا لك من مخططة بارعة!

- هذا هو شأن كبار السن دائماً. ثم إن ديانا مغرمة به، ألا ترين أنها هي الأخرى خير من يصلح له؟

- لست مع هذا الرأي. إنهما لا يتفقان خُلقاً وميولاً، وما أظن إلا أن دافيد سوف يشعر بثقل وطأة هذا الزواج وضيقه به إذا ما تم فعلاً.

- حسناً، سوف نرى. ومهما يكن من أمر فإنك لا تريدينه زوجاً، أليس كذلك؟

- نعم بكل تأكيد. إيما، ألا يعجبك ديزموند؟

- بلى، إنه رقيق الحاشية جم الأدب.

- وما هو رأي جدي فيه؟ لعله لا يميل إليه.

- هذا ما كان متوقعاً، وإن كنت أرجو أن يتغير شعوره مع الأيام. يجب ألاّ تتعجلي هذا التحول؛ فكبار السن لا يغيرون آراءهم بسهولة، وبالذات جدك الذي عُرف عنه العناد.

- إن رأي جدي لا يعنيني في كثير أو قليل، فسأتزوج من ديزموند حينما يحلو لي.

- أدرك ذلك، غير أنني أرجو أن تكوني أكثر واقعية وأقل

اندفاعاً. إن بوسع جدك أن يسبب لك الكثير من المتاعب كما تعرفين؛ فأنت لم تبلغي بعد سن الرشد، وبعد عام يمكنك أن تفعلي ما تشائين. وخلال هذا العام سيكون هوارس قد لانت قناته.

وألقت سارة بنفسها بين أحضان جدتها تطوقها بذراعيها قائلة: حسبي أنك تقفين إلى جانبي، أليس كذلك؟

- أنا لا أريد سوى أن أراك سعيدة. ها هو رجلك قد عاد بسيارته، إن هذه السراويل الضيقة تعجبني وإن كانت تبرز عيوب الساقين عند الركبتين.

وتبادر إلى ذهن سارة ما لم يدر بخلدها من قبل؛ إن بركبتَي ديزموند بروزاً ملحوظاً! وأردفت السيدة لاسي قائلة: هيا يا صغيرتي، استمتعي بحياتك.

ووقفت تتابعها بنظراتها وهي في طريقها إلى السيارة، ثم اتجهت إلى المكتبة حيث يجلس ضيفها الأجنبي، وأطلت من فرجة الباب لتجد هيركيول بوارو مستمتعاً بإغفاءة صغيرة، فابتسمت ومضت قدماً عبر البهو إلى المطبخ لتجتمع بالسيدة روس.

بادر ديزموند سارة قائلاً: هلمّي بنا، هل تعترض أسرتك على ذهابك إلى إحدى الحانات؟ إنهم يعيشون هنا في الماضي، أليس كذلك؟

فاحتدّت سارة قائلة وهي تستقل السيارة: كلا، مطلقاً.

- ترى ما هو الداعي لدعوة هذا الرجل الأجنبي؟ إنه رجل تحرٍّ سرّي، أليس كذلك؟

- إنه لم يُدعَ بحكم مهنته. إن أدوينا موركومت هي التي سألتنا أن ندعوه، وأعتقد أنه اعتزل العمل منذ فترة طويلة.

- إنه يبدو أشبه بجواد بلغ من العمر عتياً.

- كان يريد -فيما علمت- أن يشهد عيد ميلاد إنجليزي طبقاً للتقاليد القديمة.

فضحك ديزموند بازدراء، ثم قال: هذه التقاليد البالية! كيف تطيقينها، لست أدري؟

فقالت محتدة: إنني أستمتع بها.

- لا، هذا ما يُخيَّل إليك. فلنرحل باكراً إلى سكاربورو أو أي مكان آخر هرباً من كل ما يحيط بنا هنا.

- لا يمكن أن أفعل شيئاً من هذا القبيل.

- ولم لا؟

- لا أريد أن أؤذي شعورهم.

- هراء! هذه مجرد مشاعر أطفال.

لم تدرِ سارة ما تقول؛ فالاحتفال بعيد الميلاد في هذا الجو العائلي يطيب لها وتتوق إلى كل ما فيه. وشعرت بأنها كانت تود لو لم يحضر ديزموند ليشاركهم بهذا العيد، بل

إنها ودّت لو لم يحضر ديزموند إلى منزلهم على الإطلاق؛ إن ديزموند في لندن غيره في كنجز لاسي.

وفي الوقت نفسه كان الصبيّان وبريجيت عائدين أدراجهم من البحيرة يستعرضون مشكلات التزلّج ويناقشونها، وكانت السماء تبشّر بمزيد من الثلوج المتساقطة، وقد عقّب كولين قائلاً: إن الثلوج ستواصل تساقطها طوال الليل، وأؤكد لكم أن سُمك هذه الثلوج سيبلغ القدمين في صبيحة عيد الميلاد.

واقترح مايكل: فلنُقم تمثالاً من الجليد لرجل.

- رباه! إنني لم أُقم هذا التمثال منذ... منذ أن كنت في الرابعة.

وانبرت بريجيت قائلة: أعتقد أن صنع هذا التمثال ليس بالأمر اليسير.

- يمكن أن نجعله صورة للسيد بوارو، ونضيف إليه شارباً أسود غزيراً. يوجد شارب في صندوق الزينة.

وقال مايكل بروية: لا أصدق أن السيد بوارو كان شرطياً في يوم من الأيام، إذ لم يكن بوسعه أن يخفي شخصيته بأي حال.

فقالت بريجيت مردفة: ولا يمكن أن يتصوره الإنسان حاملاً منظاره المكبر بحثاً عن الأدلة ومتتبعاً لآثار الأقدام.

وانبرى كولين قائلاً: لقد طرأت على بالي فكرة، فلنُعدّ

له تمثيلية.

فتساءلت بريجيت: ماذا تعني على وجه التحديد؟

- ندبّر له جريمة قتل.

- يا لها من فكرة رائعة! هل تعني أن ندس له جثة بين الثلوج أو شيئاً من هذا القبيل؟

- نعم، فقد يرضيه هذا ويعيد إليه ثقته بنفسه.

فضحكت بريجيت، واستطرد كولين: إذا ما واصلت الثلوج تساقطها فهذا يعني أن المسرح معدّ لكل شيء. سوف نُعِدّ الجثة وآثار الأقدام، علينا أن نُحكم التدبير ولا نغفل شيئاً، ويمكننا أن نختلس أحد خناجر جدنا ونفتعل بعض البقع من الدماء.

وتوقفوا عن السير مستغرقين في مناقشة مثيرة: يوجد صندوق طلاء في غرفة الدرس القديمة يمكننا أن ننتفع به في إعداد مزيج قرمزي.

فعقبت بريجيت قائلة: على أن يُراعى إتقان المزيج بحيث يطابق في لونه لوم الدماء السائلة.

وتساءل مايكل: ومن سيكون الجثة يا ترى؟

فأسرعت بريجيت تجيب: أنا.

فقال كولين: لا. مهلاً، لقد استعرضت ذلك في ذهني.

فقالت بريجيت: لا، يجب أن أقوم بذلك؛ إذ يجب أن تكون الجثة لفتاة، فتاة جميلة ترقد مسجاة بين الثلوج. إنه لأمر مثير، كما أن شعري أسود اللون ويمكن أن يتألق بين الثلوج، ولسوف أرتدي بيجامتي الحمراء.

فاعترض مايكل بقوله: إن بقع الدماء لن تبدو جلية فوق بيجامة حمراء.

- إنها مزيّنة بالأبيض حيث يمكن أن تنتشر فوقه بقع الدماء. ترى هل سيخدع بكل هذا؟

- أجل، على أن نتقن إخراج المشهد. سنترك آثار أقدام أخرى متجهة إلى الجثة ثم عائدة أدراجها، آثار أقدام رجل، ورغبة منه في عدم إفساد الآثار فإنه لن يقترب من الجثة بحيث لا يمكنه أن يتبين حقيقة أمرك. ولكن ألم يتبادر إلى أذهانكم أنه قد يغضب بعد أن يكتشف حقيقة الأمر؟

فقالت بريجيت متفائلة: لا أعتقد هذا؛ فسوف يفسر ما حدث على أنه احتفاء به وتكريم له، ملهاة من عبث عيد الميلاد.

فانبرى كولين قائلاً: أرى ألا نفعل ذلك في يوم عيد الميلاد. إن جدي لن يوافق على شيء من هذا القبيل أو يتسامح فيه.

- فليكن المشهد في اليوم التالي إذن.

- هذا هو عين الصواب.

- وسيكون لدينا متّسع من الوقت لإعداد كل شيء على أحسن وجه.

وأسرعوا يدخلون إلى القصر.

* * *

-٣-

في المساء انصرف الجميع إلى إعداد شجرة عيد الميلاد وتزيينها، وعقّب ديزموند على ما كان يجري من حوله متهكماً: لم يدر بخلدي أن هذه التقاليد البالية ما زالت تجد لها مكاناً في عصرنا هذا.

فقالت له سارة: إننا لم ننقطع عن إحيائها يا ديزموند، فأرجو أن تكف عن ترديد هذه اللهجة الساخرة. إننا نجد كل المتعة فيما نفعل.

وتساءلت السيدة لاسي حينما اقتربت عقارب الساعة من منتصف الليل: ترى مَن سيجرؤ على اقتحام الثلوج لحضور قُدّاس نصف الليل؟

فقال ديزموند: لن أكون هذا الرجل. سارة، هيا بنا.

ثم أمسك بذراعها واتجه بها إلى المكتبة حيث اجتازاها إلى جهاز التسجيل قائلاً: ثمة حدود لكل شيء، قداس نصف الليل؟!

ودوت الضحكات وتأهب الآخرون لمغادرة القصر، وانطلق الصبيان وبريجيت ودافيد وديانا إلى الكنيسة تحت وابل من الثلوج المتساقطة. وقالت السيدة لاسي: سيد بوارو،

هل ستأوي إلى فراشك؟ أرجو لك نوماً هنيئاً.

- وأنت يا سيدتي؟ ألن تأوي إلى فراشك؟

- ليس بعد. يجب أن أملأ الجوارب، فعلى الرغم من أنهم لم يعودوا أطفالاً إلا أن هذه تبقى مفاجأة محببة.

- أحييك يا سيدتي. إنك تبذلين جهداً مضنياً لتضفي على هذا البيت السعادة في عيد الميلاد.

وعقب الكولونيل لاسي على ذلك بعد انصراف بوارو بقوله: يا له من رجل! إنه ما زال يرى فيك أنك أهل لكل تقدير.

اتجه هيركيول بوارو إلى غرفة نومه، وكانت غرفة فسيحة مزودة بأجهزة التدفئة، واجتاز الغرفة إلى فراشه حيث وقعت عيناه على مظروف ملقى فوق وسادته. فضّ المظروف ليُخرج منه قصاصة من الورق دُوِّن عليها بأحرف كبيرة: «لا تأكل شيئاً من فطيرة البرقوق. الإمضاء: ناصح يريد بك خيراً».

* * *

-٤-

كانت وليمة عيد الميلاد التي أقيمت في تمام الساعة الثانية مساء وليمة بحق، ولم تخلُ من كل ما تشتهيه النفس وتحلم به. وبعد أن أتى الجالسون إلى المائدة على كل ما قُدّم إليهم حلّت اللحظة الكبرى: لحظة تقديم فطيرة عيد الميلاد. وأصرّ بيفيريل الشيخ على ألا يحملها سواه، فأقبل بها مهتزّ اليدين والساقين بكل ما ينوء به من ضعف الثمانين عاماً ومن حمله الثقيل.

كانت السيدة لاسي تجلس ضامّةً يديها في عصبية تتفق مع ما يجول في خاطرها: إن بيفيريل سوف يسقط ميتاً -لا محالة- في يوم من أيام عيد الميلاد. وكانت تجد نفسها بين المخاطرة بهذا الاحتمال وبين إيذاء شعوره، وكانت تدرك أنه يفضّل الموت على حياة يعفى فيها من إثبات وجوده، فكان أن اختارت البديل الأول إرضاء له.

واستقبل الجميع الفطيرة الكبيرة المحمولة فوق صحن فضي بما يليق بها من ابتهاج وصياح. وأومأت السيدة لاسي إلى بيفيريل بأن يضع الفطيرة أمامها لتقوم بتوزيعها بدلاً من أن يطوف بها حول المائدة، وتنفست الصّعداء بمجرد أن استقرت الفطيرة أمامها في سلام. وسرعان ما امتدت الأيدي

بالصحون تتلقّى نصيبها، وصاحت بريجيت: سيد بوارو، فلتسرع بترديد أمانيك.

واسترخت السيدة لاسي في مقعدها راضية النفس لأن عملية توزيع الفطيرة قد تمت بنجاح، وأصبح أمام كل شخص نصيبه، وران الصمت على الجميع لحظة استغراق كل في تمنياته.

ولم يتبين أحد من الجالسين إلى المائدة ما اختلج به وجه السيد بوارو من أحاسيس وهو يُمعن النظر في قطعة الفطير التي أمامه؛ فقد كان يتردّد في خاطره التحذير الذي وجده فوق الوسادة: «لا تأكل شيئاً من فطيرة البرقوق». ترى ماذا يعني هذا التحذير؟ لا يمكن -بحال- أن يختلف نصيبه من فطيرة البرقوق عن نصيب غيره من الجالسين إلى المائدة. واستقر أخيراً على التقاط ملعقته وشوكته.

وسُمع الكولونيل يقول ضاحكاً من طرف المائدة: إن السيدة روس طاهية عظيمة.

وأردف كولين قائلاً: إنها كذلك فعلاً.

وأطبق على فطيرته يلتهمها وحذا هيركيول بوارو حذوه، فسمع رنيناً معدنياً في صحنه، وراح يتحرى أمره بشوكته في حين قالت له بريجيت التي كانت تجلس عن يساره: لقد عثرتَ على شيء في صحنك يا سيد بوارو، ترى ما هو؟

واستخلص بوارو قطعة نقود صغيرة من حبات الزبيب

التي كانت عالقة بها، فقالت بريجيت: إنه زر الأعزب! لقد حصل السيد بوارو على زر الأعزب.

قام هيركيول بوارو بتنظيف القطعة الفضية مما علق بها من فتات الحلوى، ثم تأملها قائلاً: رائعة.

فانبرى كولين موضحاً: هذا يعني أنه مقدر لك أن تكون أعزب.

فقال بوارو في أسى: هذا ما يجب أن يُتوقَّع؛ فأنا أعزب منذ أعوام طويلة ومن المستبعد أن يطرأ أي تغير على وضعي الراهن.

وقال مايكل: لا يأس مع الحياة. لقد قرأت في الصحف أن رجلاً في الخامسة والتسعين قد تزوج بفتاة في الثانية والعشرين!

فقال له بوارو: أتراك باعثاً في نفسي الأمل؟

وحينئذٍ صدر عن الكولونيل لاسي صوت المتألم، وقد احتقن وجهه وهو يرفع يده إلى فمه مزمجراً: اللعنة! إيما، لماذا تدعين الطاهية تدسّ قطعاً من الزجاج في الفطيرة؟

فصاحت السيدة لاسي في دهشة: زجاج؟!

وأخرج الكولونيل لاسي قطعة من الزجاج من فمه قائلاً: كان من المحتمل أن تتسبب في الإضرار بأسناني أو -في حالة ابتلاعها- في إصابتي بالزائدة الدودية.

وبعد أن قام بتنظيف قطعة الزجاج مما علق بها رفعها بين أصابعه قائلاً: رباه! إنها من تلك الأحجار التي ترصع بها الدبابيس.

- هل تسمح لي؟

ومدّ السيد بوارو يده عبر جاره ليتناول الحجر من الكولونيل لاسي، وراح يتأمله فاحصاً ليجده -كما قال رب البيت- حجراً كبير الحجم في لون الياقوت. وفي مكان ما من المائدة سمع بوارو حركة مقعد يدفع إلى الخلف بقوة ثم يعاد إلى وضعه ثانية، وصاح مايكل: رباه! ماذا لو اتضح أنه حجر كريم؟

وعقبت بريجيت قائلة: ربما كانت كذلك! ولم لا؟

- بريجيت! يجب ألا يبلغ بك الحمق هذا الحد؛ إن ياقوتة في مثل هذا الحجم يجب أن تساوي عدة آلاف من الجنيهات، أليس كذلك يا سيد بوارو؟

- بلى، إنها تساوي الكثير.

وانبرت السيدة لاسي متسائلة: ولكنني لا أستطيع تصور الكيفية التي وجدت بها في الفطيرة.

وهنا تحول مجرى الحديث بقول كولين وقد امتلأ فمه ببقايا فطيرته: يا إلهي! لقد كان الخنزير من نصيبي، ليس هذا من الإنصاف في شيء.

وراحت بريجيت تردد متندرة: كان الخنزير من نصيب كولين! إن كولين هو الخنزير الجشع المفرط.

وهتفت ديانا تقول بصوت مرتفع: لقد حصلت على الخاتم.

- هذا فأل حسن؛ أنت أول من سيتزوج من زمرتنا.

وولولت بريجيت قائلة: أما أنا فقد كان قمع الحياكة من نصيبي.

وأردف الصبيّان يقولان: سوف تصبح بريجيت عانساً، سوف تصبح بريجيت عانساً.

وتساءل دافيد: من كان نصيبه النقود؟ إن في هذه الفطيرة قطعة ذهبية قيمتها عشرة شلنات. لقد علمت بهذا من السيدة روس.

فصاح ديزموند لي ورتلي قائلاً: أعتقد أنني السعيد الحظ الذي كانت من نصيبه.

وسمع الجالسان عن يمين الكولونيل لاسي وعن يساره صوته متمتماً: هذا بديهي، وإنك لسعيد الحظ فعلاً.

وقال دافيد وهو يتطلع عبر المائدة إلى حيث تجلس ديانا: لقد حصلت بدوري على خاتم آخر. يا لها من مصادفة! أليس كذلك؟

واستغرق الجميع في الضحك، ولم يشاهد أحدٌ من

الحضور السيد بوارو وهو يُسقط الحجر الأحمر في جيبه بشكل عفوي وكأنه مستغرق في التفكير.

وتوالت ألوان الحلوى بعد فطيرة عيد الميلاد، وانسحب كبار السن لينالوا قسطهم من الراحة قبل ساعة تناول الشاي والاحتفال بإضاءة شجرة عيد الميلاد، أما بوارو فقد تخلف عن ركب كبار السن واتجه صوب المطبخ الفسيح حيث بادر الطاهية قائلاً: أعتقد أنه لا ضير من أن أتقدم بتهنئتي إلى الطاهية، لقد استمتعت بما قدمته يداها.

وبعد لحظة تردد تقدمت السيدة روس منه في خطى ثابتة، وكانت امرأة فارعة الطول نبيلة الملامح، تحيطها هالة من الوقار وهي تتقدم منه في جلال دوقات المسرح. وكانت تبدو بين مساعداتها الأخريات كملكة بين رعيّتها، واستقبلته قائلة: يسرني أن أسمع منك هذا الإطراء يا سيدي.

- لكني مهما أطريت طعامك فلن أوفيك حقك من الشكر. سيدة روس، إنك النبوغ بعينه، بل إنني لم يسبق لي أن استمتعت بمثل هذه الألوان. لقد تفوقت على الجميع وتفوقت على نفسك بفطيرة البرقوق، إنها من صنع يديك، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي. إن فطائر عيد الميلاد متعددة الألوان متغايرة الأساليب، ويستحسن أن تعد فطيرة العيد قبل تقديمها بعدة أيام. وقد أعددت فطيرة اليوم قبل وصولك بثلاثة أيام حرصاً على الالتزام بالعادات القديمة كما هو دأبي، وأتحت

الفرصة لكل من يقيم بالقصر أن يتواجد في المطبخ ويدعو الله بما يريد ويتمنى.

- وهكذا أقبل الجميع عليك في المطبخ؟

- أجل يا سيدي. الصبيان، والآنسة بريجيت، والسيد القادم من لندن وشقيقته، والسيد دافيد، والآنسة ديانا... وقد استمتع الجميع بلحظاتهم.

- كم فطيرة قمت بصنعها؟ هل كانت هذه هي الفطيرة الوحيدة؟

- لا يا سيدي. لقد صنعت أربع فطائر، اثنتين كبيرتي الحجم واثنتين أصغر منهما حجماً، والفطيرة الكبيرة الأخرى احتفظت بها لمأدبة رأس السنة، أما الفطيرتان فهما للكولونيل وللسيدة لاسي. وفي الواقع يا سيدي، لقد كانت فطيرة اليوم هي الفطيرة المعدة لمأدبة رأس السنة، وذلك نتيجة لما حدث من سقوط فطيرة عيد الميلاد فوق الأرض مما ترتب عليه فسادها، وهكذا قدمت الفطيرة الأخرى التي كانت معدة لرأس السنة.

- لقد استمتعت بكل شيء وأعادتني فطيرتك إلى الأيام الخوالي.

- هذا من دواعي سروري، ومهما يكن من أمر فالأيام لم تعد بالحال الذي كانت عليه.

- أجل؛ إن الزمن يتغير، وهذا ما يسبب لي الشعور

بالأسى أحياناً.

- إن هذا القصر كبير مترامي الأطراف يا سيدي، ولا يقيم به سوى الكولونيل والسيدة. والسيدة تدرك هذه الحقيقة، وهما لا يتخذان من جميع قاعاته وأبهائه سكناً لهما بل يقنعان بركن منه، ولا تدب الحياة في جميع أركان القصر سوى في أيام الأعياد.

- أظن أن هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها السيد لي ورتلي وشقيقته هذا القصر؟

فأجابته السيدة روس وفي صوتها نبرة تحفظ: نعم يا سيدي. إنه سيد بالغ الرقة وإن بدا لنا أنه ليس بالصديق المرتجى للآنسة سارة، غير أن للندن أساليب حياتها المختلفة! ومن المؤسف أن تسوء حال شقيقته. يقول إنه سبق أن أجريت لها جراحة وأنها تماثلت للشفاء -كما بدت في أول يوم عقب قدومها- غير أن حالتها انتكست في ذلك اليوم بالذات مما استتبع ملازمتها الفراش بعد ذلك. وأعتقد أن هذا يرجع إلى تعجيلها بمغادرة الفراش عقب إجراء الجراحة، وهذا هو شأن أطباء اليوم، لكي يفسحوا مكاناً لمرضى جدد.

واصلت السيدة روس حديثها في المقارنة بين الماضي والحاضر، واستمع لها بوارو في أناة وصبر إلى أن فرغت من حديثها، ثم قال لها: يبقى أن أشكرك على هذا الطعام الرائع الشهي، وأرجو أن تأذني لي بالتعبير المتواضع عن خالص تقديري.

وبحركة سريعة أخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات أودعها يد السيدة روس التي تمنّعت قائلة: لا يا سيدي، لا.

- أرجوك أن تقبلي هذا المبلغ الصغير، أرجوك.

- فليكن ما تريد يا سيدي. وإني لأرجو لك عيد ميلاد سعيداً وعاماً جديداً موفقاً.

* * *

-٥-

لم يختلف الجزء الأخير من يوم عيد الميلاد عن غيره من أعياد أخرى؛ فقد أضيئت الشجرة وقُدّمت كعكة عيد الميلاد مع الشاي، ثم دُعي الحاضرون فيما بعد إلى عشاء خفيف.

وأوى كل من بوارو ومضيفته إلى الفراش مبكرين، وحيته السيدة لاسي قائلة: طابت ليلتك يا سيد بوارو، أرجو أن تكون قد استمتعت بيومك.

- كل الاستمتاع يا سيدتي، لقد كان يوماً رائعاً.

- تبدو شارد الذهن.

- إنها الفطيرة الإنجليزية التي تشغل بالي.

- أتراها كانت عسيرة الهضم؟

- لا، لا، لست أعني هذه الناحية.

- إنها فطيرة تقليدية. حسناً، طابت ليلتك وأرجو ألا تملأ أحلامك فطائر عيد الميلاد.

وردد بوارو فيما بينه وبين نفسه بينما كان يخلع ثيابه: أجل، إنها لمشكلة حقاً فطيرة البرقوق هذه. يوجد هنا شيء لا أستطيع إدراكه ولا أتبين له كنهاً. حسناً، لسوف نرى.

وبعد القيام ببعض الإعدادات أوى بوارو إلى فراشه، ولكنه لم يخلد إلى النوم.

وبعد ساعتين أثمر صبره، إذ فُتح باب غرفة نومه برفق، وابتسم راضياً لأن هذا هو ما كان يتوقعه على وجه التحديد. واستعاد في ذهنه تلك اللحظة التي امتدت فيها يد ديزموند لي ورتلي بقدح القهوة إليه، وما كان منه بعد قليل حينما ولاه ديزموند ظهره إلا أن وضع الفنجان فوق المنضدة لبضع لحظات، ثم عاد يلتقطه ثانية متحرياً أن يراه ديزموند وهو يلقي بمحتوياته في جوفه لآخر قطرة. وابتسم بوارو وهو يستعيد في ذهنه أن غيره هو الذي يغطّ الآن في نومه هذه الليلة، وحدّث نفسه قائلاً: لن يضير دافيد أن يستغرق في النوم فيستريح قليلاً من قلقه ومن تعاسته. والآن لنرَ ماذا عساه أن يحدث؟

كان مستلقياً في صمت وسكون متظاهراً بالاستغراق في النوم، وشعر بمن يقترب من فراشه ويتفرس في وجهه، ثم استدار القادم مبتعداً عن الفراش في اتجاه منضدة الزينة حيث راح يفحص حاجيات بوارو الموضوعة فوق المنضدة بمساعدة مصباح كهربائي صغير. وانتقل البحث إلى أدراج المنضدة ومنه إلى الثياب، وأخيراً عاد القادم ليقترب من الفراش فدسّ يده في حذر شديد تحت الوسادة، وبعد أن سحب يده وقف لحظة أو لحظتين وهو في حيرة من أمره، ثم واصل بحثه في الغرفة وفي الحمام قبل أن يغادر الغرفة ساخطاً.

وهمس بوارو بعد انصراف الرجل قائلاً: لقد خاب

ظنك، أوَكان يخيل إليك أن هيركيول بوارو يخفي شيئاً حيث يمكن أن تجده؟

ثم استسلم لنوم هادئ عميق.

وصحا في صباح اليوم التالي على صوتٍ يطرق بابه برفق فقال: من بالباب؟ ادخل، ادخل.

وفُتح الباب ليخطو عبره كولين لاهث الأنفاس، ومن خلفه مايكل: سيد بوارو، سيد بوارو.

فنهض بوارو جالساً في فراشه، وهو يقول: ماذا جرى؟

وقف كولين لحظة دون أن ينطق بشيء، وبدا أنه كان تحت تأثير مشاعر عنيفة، وفي الواقع وحقيقة الأمر فإن رؤيته للقلنسوة التي يرتديها بوارو هي التي ألجمت لسانه. ولكنه سرعان ما استعاد جأشه وتحدث قائلاً: سيد بوارو، هل تستطيع مساعدتنا؟ لقد وقع حادث مفزع.

- ماذا حدث؟

- إنها... إنها بريجيت، إنها ملقاة هناك بين الثلوج مستلقية دون حراك. يحسن بك أن ترى بنفسك، إنني أخشى أن تكون قد لقيت حتفها.

فقال بوارو وهو ينحي أغطية الفراش جانباً: ماذا تقول؟ الآنسة بريجيت جثة هامدة!

- أعتقد... أعتقد أنها قد قُتلت. لقد شاهدنا بقعاً من الدماء. أرجوك أن ترى بنفسك، هيا بنا.

- بكل تأكيد، بكل تأكيد.

وأسرع بوارو يرتدي معطفاً من الفراء فوق بيجامته وينتعل حذاءه.

- هيا بنا، أتراك أيقظت من بالمنزل؟

- لا، لم أُخطر أحداً بالأمر سواك اعتقاداً مني بأن هذا أفضل، ولم يستيقظ جدي وجدتي بعد. والخدم يعدون طعام الإفطار بالطابق الأرضي. إنها، بريجيت، موجودة في الناحية الأخرى من القصر على مقربة من الشرفة ونافذة المكتبة.

- فلتتقدمني وسأتبعك.

وأشاح كولين بوجهه عنه ليخفي ابتسامته وتقدمه هابطاً الدرج، وانطلقا من المنزل عبر الباب الجانبي. كانت السماء صافية ولم ترتفع الشمس بعد عن الأفق، وكانت الثلوج قد توقفت عن التساقط بعد أن توالى تساقطها طوال الليل فاكتست الأرض ببساط سميك من الجليد، وكان صباحاً جميلاً نقياً ناصع البياض.

قال كولين لاهثاً: هناك، أجل هناك.

كان المشهد مؤسفاً حقاً، فعلى بعد بضعة أمتار كانت بريجيت ملقاة بين الثلوج، وكانت ترتدي بيجامة حمراء

وتضع فوق كتفيها وشاحاً أبيض لُطّخ ببعض بقع من الدماء. وكانت متجهة بوجهها إلى الناحية الأخرى وقد اختفى رأسها تحت كتلة شعرها الأسود، وفي وسط بقعة الدماء بدت قبضة المدية الكبيرة التي عرضها الكولونيل لاسي على ضيوفه بالأمس فقط، وصاح بوارو قائلاً: يا إلهي! وكأني أمام أحد المسارح.

وصدر عن مايكل صوت أشبه ما يكون بالحشرجة، وأسرع كولين يتدارك الموقف بقوله: هذا ما يبدو فعلاً. هل ترى آثار الأقدام هذه؟ من المفروض ألا نقترب منها.

- نعم، هذه الآثار. فعلاً، يجب ألا نعبث بها.

فقال كولين مؤكداً: هذا هو ما تراءى لي، وهذا هو السبب في حرصي على ألا يقترب منها أحد قبلك لأنك تعرف ما يجب أن يُتّبع.

فعقب بوارو باقتضاب: أولاً، يجب أن نرى ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة.

فقال مايكل متردداً: أجل بكل تأكيد. غير أننا رأينا... أعني أنني لم أشأ...

- هكذا يكون الحزم. لقد اطّلعتم على القصص البوليسية. إنه لمن الأهمية بمكان ألا يُعبث بشيء في مكان الجريمة وأن تترك الجثة كما عثر عليها، غير أننا لم نستوثق بعد ما إذا كان ما نراه جثة بحق. ومهما يكن مما يقال عن وجوب التحلي

بالحزم فإن الإنسانية تأتي في المكان الأول، وعلينا أن نستدعي الطبيب قبل أن نستدعي رجال الشرطة، أليس كذلك؟

فقال كولين وقد بان اضطرابه: بلى... بلى، بكل تأكيد.

وأردف مايكل قائلاً: لقد رأينا أنه من الأفضل أن نتصل بك أولاً قبل أن نخطو خطوة أخرى.

- عليكما بالبقاء حيث أنتما، وسوف أقترب من الجثة من الجانب الآخر لكي لا أفسد آثار أقدام واضحة جلية تستوجب المحافظة عليها. إنها آثار أقدام رجل وفتاة في طريقهما إلى حيث وجدت الجثة، ثم هذه هي آثار أقدام الرجل يعود أدراجه، أما الفتاة فلم تعد معه.

وأسرع كولين يقول: لا بد أنها آثار أقدام القاتل.

فوافق بوارو قائلاً: تماماً، آثار أقدام القاتل. إنها آثار قدم مستطيل ينتعل حذاء يسهل التعرف على صاحبه، إنها آثار بالغة الأهمية.

وحينئذ أقبل كل من ديزموند وسارة فانضمّا إليهم، وقال ديزموند في لهجة مسرحية: ماذا تفعلون هنا؟ لقد أبصرت بكم من نافذة غرفتي، ماذا حدث؟ يا إلهي! ما هذا؟ إن الأمر يبدو...

فأجابه هيركيول بوارو: تماماً، إن الأمر يبدو كجريمة

قتل، أليس كذلك؟

وضعت سارة يدها على فمها تكتم صرخة ثم ألقت بنظرة شك إلى الصبيين، وتساءل ديزموند: أتعني أن الفتاة قد قُتلت، ما هو اسمها... بريجيت؟ من ذا الذي يريد لها الموت؟ إن هذا لأمر مستبعد.

فقال له بوارو: ثمة الكثير من مما يستبعده الإنسان، وبالذات قبل الإفطار على حد قول أمثالكم القديمة. أرجوكم أن تنتظروا هنا.

واقترب من بريجيت من الجانب الآخر وراح يتأمل الجثة عن كثب، وكان كل من كولين ومايكل يجهدان ليكتما ضحكة تريد أن تنطلق. واقتربت سارة منهما قائلة: ترى ماذا فعلتما؟

فهمس كولين قائلاً: بريجيت البارعة! أليست رائعة؟ لقد حرصت على ألا تصدر عنها أي حركة.

وعقب مايكل بقوله: لم يسبق لي أن رأيت جثة هامدة كما تبدو بريجيت.

عندئذ اعتدل بوارو وهو يقول: يا للحادث المروع!

فانبرى مايكل متسائلاً: ماذا... ماذا يجب أن نفعل؟

فأجابه بوارو: ليس ثمة ما يجب أن تفعله سوى أن تبعث في طلب الشرطة. هل يقوم أحد منكم بذلك؟ ماذا

ترى يا مايكل؟

فقال مايكل وهو يخطو إلى الأمام: أرى أن اللعبة قد انتهت. أنا آسف جداً وأرجو أن تغفروا لنا؛ لقد فعلنا ذلك من باب اللهو والعبث لمناسبة عيد الميلاد ورأينا أن نقوم بتمثيل حادث قتل نخدع به السيد بوارو.

- هذا ما تراءى لكم؟ إذن فهذا... إذن فهذا...

فقال كولين موضحاً: مجرد مشهد أعددناه إرضاء لك.

- هكذا؟ إنكم تجعلون مني ضحية لكذبة إبريل! ولكن اليوم ليس بأول إبريل، إنه السادس والعشرون من ديسمبر.

- أعتقد أنه ما كان ينبغي لنا الإقدام على ذلك، ولكنك ستغفر لنا ما أقدمنا عليه. بريجيت، هيا انهضي قبل أن تتجمدي من شدة البرد.

غير أن الفتاة لم تتحرك، وعقّب هيركيول بوارو بقوله: عجباً، لا يبدو أنها سمعت النداء. هل قلتما إنه مزاح؟ أتراكما واثقَين من ذلك؟

فقال كولين وقد استبد به القلق: نعم، ونحن لم نستهدف الأضرار بأحد.

- إذن فلماذا لم تنهض الآنسة بريجيت؟

- لا أدري.

فقالت سارة بصبر نافد: بريجيت، هلا نهضت ووضعت حداً لهذا الهذر؟

وأردف كولين معتذراً: سيد بوارو، إنني آسف، إننا نعتذر عن هذا الإزعاج.

- ليست بك حاجة إلى الاعتذار.

- ماذا تعني؟ بريجيت! ماذا جرى؟ لماذا لا تستجيب للنداء؟ لماذا لم تنهض؟

فأومأ بوارو إلى ديزموند قائلاً: أنت يا سيد لي ورتلي، اقترب مني.

اقترب منه ديزموند فقال له بوارو: تحسس نبضها.

وقام ديزموند بتنفيذ ما طُلب منه ثم أردف قائلاً: النبض متوقف وذراعها متيبس. يا إلهي! إنها جثة هامدة!

فعقّب بوارو بقوله: أجل، إنها جثة هامدة فعلاً. لقد جعل بعضهم من المهزلة مأساة. بعضهم... من عساه يكون؟ توجد آثار أقدام تشبه إلى حد كبير آثار أقدامك المتخلّفة عن قدومك إلى هذه البقعة.

فاستدار ديزموند لي ورتلي على عقبَيه قائلاً: رباه! هل تتهمني أنا؟ إنك لمجنون! وما الذي يدعوني لقتل هذه الفتاة؟

- هذا هو ما يدور في خاطري. فلنرَ.

وركع يحاول فتح أصابع يد الفتاة المطبقة فحملق ديزموند غير مصدق لما تراه عيناه، إذ انفرجت راحة يد الفتاة القتيلة عن ياقوتة كبيرة الحجم، فصاح ديزموند قائلاً: هذه هي قطعة الزجاج المستخرجة من الفطيرة.

- وهل أنت واثق من ذلك؟

- كل الثقة.

وفي حركة سريعة ركع ديزموند ليلتقط الحجر الأحمر من يد بريجيت، فقال له بوارو مؤنباً: ما كان يجب أن تفعل ذلك، كان يجب أن يُترك كل شيء على حاله.

- أنا لم أعبث بالجثة، وكان من الممكن أن نفقد هذا الحجر الذي يعد دليلاً له أهميته. أرى أن نسرع باستدعاء الشرطة، سأقوم بالاتصال بهم تليفونياً على الفور.

وهرع إلى القصر لا يلوي على شيء، وأسرعت سارة إلى جانب بوارو هامسة وقد امتقع وجهها وهي تمسك بذراعه في لهفة: أنا لم أدرك شيئاً، لم أدرك شيئاً مما كنت تعنيه بحديثك عن آثار الأقدام.

- آنستي، ابحثي بنفسك.

وبعد أن تبينت أن آثار الأقدام المتجهة إلى الجثة والمبتعدة عنها مطابقة للأخرى المتخلفة عن ديزموند هتفت قائلة: هل تعني أنه ديزموند؟ هراء.

وفجأة سُمع صوت محرك سيارة يعكر صفو السكون،

فاستداروا على أعقابهم ليشاهدوا سيارة تندفع بسرعة جنونية في الطريق. وتعرفت سارة على السيارة قائلة: إنه ديزموند... إنها سيارة ديزموند، لا بد أنه رأى أن يذهب بنفسه لإبلاغ الشرطة والعودة بهم وأن ذلك أولى من الاتصال بهم تليفونياً.

وأقبلت ديانا ميدلتون تعدو لتنضم إليهم، وتساءلت وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها: ماذا حدث؟ لقد أقبل ديزموند مندفعاً إلى القصر وقال شيئاً عن مقتل بريجيت، وحاول الاتصال تليفونياً غير أنه لم يتمكن من ذلك، وقال إن أحداً قد عبث بأسلاك التليفون، ثم قال إنه لا مفر له من أن يستقل سيارته إلى مركز الشرطة. ففيم كل هذا؟

وصدرت عن بوارو حركة لها معناها، فحملقت ديانا في وجهه قائلة: بريجيت؟ ألم يكن هذا من قبيل المزاح؟ لقد سمعت عن شيء من هذا القبيل الليلة الماضية وخيل إليّ أنهم سيمضون في تنفيذ ما اتفقوا عليه من عبث ضدك.

- أجل، فهذه كانت فكرتهم، أن يدبروا هذا المزاح ضدي. والآن، هيا بنا جميعاً إلى المنزل في انتظار عودة السيد لي ورتلي.

فقال كولين معترضاً: لا يمكن أن نترك بريجيت وحيدة هنا.

- ليس من جدوى يا ولدي من بقائك هنا. إنها لمأساة حقاً، مأساة مروعة، وإن كنا لا نملك شيئاً إزاءها. إذن فلنأوِ

إلى القصر اتقاء للبرد حيث يمكن أن نجد قدحاً من الشاي أو القهوة.

وتبعوه إلى القصر حينما كان بيفيريل على وشك أن يقرع جرس الإفطار، واتجهوا إلى قاعة الطعام حيث اتخذ كل منهم مقعده. وبعد أن فرغوا من تناول طعامهم، وكانوا يحتسون القهوة، بدأ بوارو بالحديث: أجد لزاماً عليّ أن أسرد على مسامعكم قصة قصيرة، ولن أقصّ عليكم جميع تفصيلاتها، بل ستسمعون مني خطوطها الأساسية. إنها قصة أمير قدم إلى هذه البلاد وقد حمل معه جوهرة ثمينة مشهورة بغرض إعادة صياغتها قبل تقديمها للسيدة التي كان سيتزوج بها، غير أنه كان قد عقد صداقة مع سيدة حسناء في مقتبل العمر، ولم يكن الرجل موضع عناية السيدة الحسناء بل كانت تركز همها في قطعة المجوهرات.

وكان أن اختفت السيدة ذات يوم حاملة معها تلك القطعة التاريخية الثمينة التي تُعَدّ من ممتلكات أسرته منذ عدة أجيال. وهكذا وجد الأمير الصغير نفسه في مأزق حرج، وهو -بحكم مركزه- يجب أن يتجنب كل فضيحة، الأمر الذي لا يمكنه إزاءه أن يتصل بالشرطة. ولذلك فقد رأى الاتصال بي، بهيركيول بوارو، ليعيد إليه ياقوتته التاريخية.

وكان لهذه السيدة الحسناء صديق، ولهذا الصديق ماض غير شريف، غير أن هذا الصديق لم يقع تحت طائلة القانون ولم تتجاوز سمعته حد الشك فيه لأنه كان حاذقاً

شديد الحرص. ولقد وصل إلى علمي أن هذا السيد الشديد الذكاء يقضي عيد الميلاد في هذا القصر، وكان من الضروري أن تختفي السيدة الحسناء عن الأنظار بمجرد حصولها على الياقوتة تجنباً لما عساها أن تتعرض له من حرج وضغط. وبناء على ذلك اتُّخذت الاحتياطات اللازمة لمجيئها إلى كنجز لاسي بوصفها شقيقة السيد الأفّاق.

فقاطعته سارة قائلة: أوه، كلا، كلا! ليس هنا... ليس وأنا موجودة هنا.

- ولكن، هذا هو الواقع. وقد تسنّى لي أن أُدعى لقضاء عيد الميلاد هنا، وكان من المفروض أن تزعم تلك السيدة الحسناء أنها غادرت المستشفى قبل مجيئها إلى هنا وأن صحتها آخذة في التحسن. ثم وردت الأنباء بدعوتي -أنا الشرطي السري الأشهر- إلى القصر، وسرعان ما ادّعت أنها انتكست صحياً ولزمت فراشها بعد أن أخفت الياقوتة في أول مكان طرأ على بالها. وكانت لا تريد أن يتم بيننا لقاء لأنني كنت سأتعرف عليها من صورتها الفوتوغرافية التي كانت معي، وهنا قضت على نفسها بعدم مغادرة غرفتها على أن يحمل شقيقها إليها الطعام.

وانبرى مايكل متسائلاً: والياقوتة؟

- لقد كانت السيدة -فيما أعتقد- موجودة معكم في المطبخ حينما أعلن نبأ وصولي، وكنتم في تلك اللحظة تعبثون وتلهون وترتفع ضحكاتكم إلى عنان السماء. ورأت

السيدة الحسناء أن أصلح مكان لإخفاء الياقوتة هو إحدى الفطائر التي كانت تعد لمأدبة رأس السنة، وكانت السيدة قد علمت بهذا التفصيل من الطاهية عرضاً، وكانت تزمع الرحيل قبل رأس السنة حاملة معها الفطيرة المشار إليها، غير أن للقدر يده العليا، فقد حدث أن سقطت الفطيرة المعدة لمأدبة عيد الميلاد في صباح اليوم نفسه مما جعلها غير صالحة للتقديم، وكان أن رأت السيدة روس تقديم الفطيرة الأخرى المعدّة لرأس السنة والتي وضعت السيدة الحسناء الياقوتة الحمراء فيها.

فقال كولين: يا إلهي! هل تعني الياقوتة التي تسببت في ثورة جدي حينما كان يلتهم نصيبه من الفطيرة؟

- نعم. ويمكنك أن تتصور انفعالات السيد ديزموند لي ورتلي حينما فوجئ بذلك. وحدث أن تناولت الياقوتة من يد الكولونيل لاسي بحجة فحصها ووضعتها خلسة في جيبي، غير أن شخصاً واحداً لم تفته هذه الحركة. وقد دخل إلى غرفتي وقام بتفتيشها وبتفتيشي، ولكنه لم يعثر على الياقوتة، فكيف كان ذلك؟

فأسرع مايكل يقول: لأنك سلمتها لبريجيت. هذا هو ما تعنيه... ولكنني لا أفهم شيئاً، ماذا حدث على وجه التحديد؟

فابتسم بوارو قائلاً: هيا بنا إلى المكتبة. أطلّوا من النافذة ولسوف أطلعكم على ما قد يجلو لكم هذا السر.

وتقدمهم وتبعه الجميع، وبادرهم بوارو بقوله: هيا استعيدوا مسرح الجريمة.

ثم لوّح بيده عبر النافذة فندّت عن الجميع صرخة مكتومة؛ فلم تكن هناك جثة فوق الجليد، لم يكن ثمة أثر للحادث المؤسف. وفي صوت خافت قال كولين: هل كان ما شاهدناه حلماً؟ هل رفعت الجثة من مكانها؟

- هذا هو لغز الجثة المختفية.

ثم أطرق برأسه، وصاح مايكل قائلاً: سيد بوارو، إنك تعبث بمشاعرنا.

- هذا صحيح يا بني. أليس من حقي أن ألهو بدوري؟ لقد كنت على علم بما تدبرون، ولقد عمدت إلى تدبير ما أواجه به مؤامرتكم، وها هي الآنسة بريجيت. أرجو ألا يكون قد أصابك أذى من تعرضك لبرودة الجلد القاسية؟

كانت بريجيت قد أقبلت ترتدي ثياباً صوفية سميكة وهي تضحك، وبادرها بوارو قائلاً: لقد بعثت إليك بشراب ضد البرد، هل تناولت شيئاً منه؟

- جرعة واحدة كانت فيها الكفاية، إنني بخير. أتراني قد أجدت تمثيل دوري؟ إن ذراعي تؤلمني نتيجة لهذا الرباط الضاغط الذي سألتني وضعه حوله.

- لقد كنت رائعة يا بنيتي، رائعة. ولكن مهلاً، إن سائر القوم ما زالوا في الظلام. لقد التقيت بالآنسة بريجيت الليلة

الماضية وقلت لها إنني على علم بمؤامرتكم، وسألتها أن تقوم بدور من أجلي. ولقد أدت دورها ببراعة منقطعة النظير، وهي التي افتعلت آثار الأقدام بواسطة حذاء السيد لي ورتلي.

فانبرت سارة متسائلة بصوت أجش: ولكنني أريد أن أعرف فيمَ كل هذا؟ وفيم كان إيفاد ديزموند ليعود برجال الشرطة؟ إن رجال الشرطة لن يغفروا هذا العبث.

- لا أعتقد يا آنستي أن السيد لي ورتلي قد ذهب لإبلاغ رجال الشرطة بشيء. إن القتل جريمة لا يريد السيد لي ورتلي أن يزجّ باسمه فيها. لقد فقد السيطرة على أعصابه وكان كل ما يعنيه أن يفوز بالياقوتة، فادّعى أن الهاتف معطل وهرع بحجة إحضار رجال الشرطة، وأعتقد أنه سيطول بك العهد قبل أن تلتقي به ثانية. إن لديه وسائله الخاصة التي تمكّنه من الرحيل عن إنكلترا. إن لديه طائرته الخاصة، أليس كذلك؟

فأومأت سارة برأسها قائلة: بلى، وقد كنا نعتزم...

وتوقفت عن مواصلة الكلام فقال لها بوارو: لقد كان يريد منك أن تهربي معه، أليس كذلك؟ إنها وسيلة للتهرب مأمونة العواقب، فحينما يقال عنه إنه هارب مع فتاة سيعلن هذا على الملأ، ولن تساور الشكوك أحداً بالنسبة للنواحي الأخرى كتهريب جوهرة تاريخية مثلاً. إن هروبك معه كان من شأنه أن يُستغَل كستار لعملية التهريب التي تعد بيت القصيد.

- لا أصدق شيئاً من هذا، وأستبعده تماماً.

فقال لها بوارو في رقة بالغة: سلي شقيقته. وأومأ برأسه ناحية الباب فأسرعت سارة تدير رأسها إلى حيث وقع نظرها على سيدة شقراء واقفة بالباب ترتدي معطفاً من الفراء. وقالت هادرة وقد استشاطت غضباً: شقيقته؟! هذا الأفّاق ليس شقيقي. لقد أطلق الدعيّ ساقيه للريح وتركني أحمل الوزر وحدي. لقد كان كل شيء من تدبيره، ولقد أغراني بكسب وفير لأقبل عرضه، كما قال لي إنهم لن يقيموا الدعوى ضدي تجنباً للفضيحة وإن بوسعي أن أهدد بأن الأمير هو الذي أهداني الياقوتة التاريخية. وكان من المفروض أن نقتسم الغنيمة في باريس، والآن يخدعني هذا الأفّاق ويلوذ بالهرب؟! بودّي لو قتلته. هلا استدعيتم لي سيارة أجرة تليفونياً؟

فقال لها بوارو: السيارة في انتظارك بالباب.

- إنك لا تغفل شيئاً، أليس كذلك؟

- في غالب الأحيان.

وحينما عاد بوارو إلى قاعة الطعام بعد معاونة السيدة الراحلة وهي تستقل السيارة استقبله كولين قائلاً بحدة: سيد بوارو، ماذا عن الياقوتة؟ هل أفهم مما سمعت أنك تركته يرحل بها؟

بدا أن بوارو قد أُسقط في يده وقال متخاذلاً: لسوف أعيدها بوسيلة أو بأخرى، سأبذل قصارى جهدي.

فصاح مايكل يقول محتدّاً: إن مجرد إتاحة الفرصة لهذا

الأفّاق ليفوز بما خطط له...

قاطعته بريجيت: إنه يسخر منا ثانية. أليس كذلك يا سيد بوارو؟

- آنستي، هل يمكن أن نختتم المسرحية بحيلة أخرى؟ ضعي يدك في جيبي الأيسر.

صدعت بريجيت بالأمر، ثم عادت تخرجها وهي تصيح في فرح وغبطة بينما رفعت يدها بالياقوتة الرائعة التي يشع بريقها.

وانبرى بوارو موضّحاً: لعلّكِ أدركتِ كل شيء. إن الياقوتة التي كانت في يدك هي تقليد محكم لها رأيت أن أحمله معي من لندن استعداداً لكل طارئ. إننا لم نرد أن نعلن عن فقد الياقوتة اتقاء الفضيحة، لذلك رأينا أن ندبر أمرنا على هذا الأساس. لقد استعدنا الياقوتة وتجنبنا الفضيحة، وسيعود الأمير إلى بلاده ويعقد قرانه. لقد انتهى كل شيء على ما يرام.

فتمتمت سارة قائلة: فيما عدا ما يتصل بي.

ولم يسمع تعقيبَها سوى بوارو فقال: آنسة سارة، لقد جانبك الصواب فيما قلت. لقد فزت بتجربة ستكون لك درساً لا ينسى، ولكل تجربة قيمتها.

وانبرى كولين يقطع عليهما حديثهما قائلاً: سيد بوارو، كيف علمت بأمر ما كنا ندبره لك؟

- أليس هذا من صميم عملي؟

- بلى، ولكنني أريد أن أعرف شيئاً عن وسائلك. ترى هل وشى بنا أحد؟ هل باح أحد بشيء؟

- لا، لا.

- إذن كيف علمت بأمر مؤامرتنا؟

وردّدوا جميعاً رجاءهم في إلحاح فقال: إذا استجبت لإلحاحكم فسوف أكشف عن أساليبي ووسائلي.

- سيد بوارو، أخبرنا بحقيقة الأمر.

- هل تريدون حقاً أن أميط اللثام عن هذا السر؟

- أجل، أجل. إننا نُلحّ في الرجاء.

- أخشى أن يخيب ظنكم، ولكن فليكن. كنت جالساً في المكتبة بجوار النافذة بعد ساعة الشاي، وكنت مسترخياً، وبعد قليل سمعتكم وأنتم تدبرون خطتكم عبر النافذة التي كنت جالساً بجوارها. وجدير بالذكر أن النافذة كانت مفتوحة على مصراعيها.

فصاح كولين: أهذا كل ما في الأمر؟

- أرأيتم كيف خاب ظنكم؟

- مهما يكن الأمر فقد أرضيت فضولنا وعرفنا كل شيء.

وتمتم هيركيول فيما بينه وبين نفسه: أما أنا فلا.

وخرج إلى البهو وقد دار بخلده التساؤل الذي ردّده أكثر من مرة عن سر قصاصة الورق التي أخرجها من جيبه وقرأ فيها: «لا تأكل شيئاً من فطيرة البرقوق، ناصح يريد لك الخير».

واستغرق هيركيول بوارو في استعراض كل احتمال، وكان غير راض عن نفسه لعجزه عن حل هذا اللغز وهو الذي لم يستعص عليه لغز قط. وراح يستعرض في ذهنه الظروف المحيطة بكتابة القصاصة والأسباب الداعية إلى كتابتها، هذه الأسئلة سوف تقضّ عليه مضجعه إلى أن يعرف الجواب الصحيح عنها. وصحا من تأملاته على صوت جلبة وضوضاء، وأبصر أمامه وإذ بإحدى الخادمات منكبّة على تنظيف الأرضية. وتبيّن أنها تحملق في قصاصة الورق التي كانت بين يديه والتي تملك عليه تفكيره، وسمعها تقول له: سيدي، سيدي، أرجوك...

- ومن عساك تكونين؟

- آني باتس يا سيدي، وأنا أعمل مساعدة للسيدة روس. إنني لم أستهدف الإضرار بأحد، لقد فعلت ذلك من أجلك.

وبدأ بوارو يدرك ما غمض عليه فرفع قصاصة الورق في وجهها قائلاً: آني، هل أنت كاتبة هذه القصاصة؟

- نعم، لقد كنت حسنة النية وكنت أستهدف كل خير لك. كانت الشكوك تساورني بالنسبة لكل من السيد لي ورتلي وشقيقته، وهي لم تكن مريضة أبداً، وقد تبادر إلى أذهاننا جميعاً أن الأمور ليست على ما يرام، وسأصارحك بكل شيء يا سيدي. لقد حدث أثناء وجودي في الحمام لتغيير المناشف أن طرق سمعي حديث بينها وبين شقيقها المزعوم، فأصخت السمع وسمعته يقول لها: هذا الشرطي المدعو بوارو، القادم إلى هنا، يجب أن نتدبر أمرنا معه. ثم استطرد هامساً: أين وضعتِها؟ فأجابته: في الفطيرة. وتبادر إلى ذهني أنهم يريدون بك شراً وأنهم قد دسّوا لك السّم في فطيرة عيد الميلاد. ولم أدر ماذا أفعل، وكنت أعرف أن السيدة روس لم تكن تصغي لأمثالي، ثم طرأت لي فكرة أن أكتب إليك تحذيراً. هذه هي حقيقة الأمر.

- يبدو لي أنك تشاهدين الكثير من الأفلام المثيرة، أم لعلك تأثرت بما تشاهدين في التلفزيون؟ على كل حال فإن لك قلباً كبيراً وذهناً متوقداً، وسوف أبعث إليك بهدية بمجرد عودتي إلى لندن.

- شكراً يا سيدي، شكراً جزيلاً.

- ماذا تودين كهدية؟

- هل لي أن أختار؟

- في حدود المعقول، نعم.

- هل يمكن أن أطمع في حقيبة يد من هذا الطراز الذي كانت تحمله الشقيقة المزعومة؟

- لك ما أردت.

- شكراً يا سيدي، أشكرك من صميم قلبي.

ومضت آني في طريقها، ووقف بوارو يتابعها بعينيه وهو يومئ برأسه راضياً مردّداً: والآن لم يبق ما أفعله هنا.

* * *

لغز التحف المسروقة

ذهبتُ إلى مسكن صديقي بوارو لأجده مجهداً مهموماً من كثرة العمل؛ فقد أصبح ذائع الصيت تلجأ إليه كل سيدة ثرية إذا فقدت سوارها أو ضاع كلبها، وأصبح هيركيول بوارو المخبر العظيم مثقَلاً بالعمل.

وصديقي المخبر صغير الحجم خليط من البلجيكي البخيل والفنّان المملوء بالحيوية والنشاط، وكان يقبل الكثير من القضايا لمجرّد أنها تصادف هوىً في نفسه، وإن كان العائد المادي قليلاً في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى لا ينال أيّ أجر ما دامت المشكلة تستهويه، وكانت النتيجة ذلك الإجهاد والضيق الذي يعاني منه صديقي، لذلك لم أجد عناءً في إقناع بوارو بقضاء إجازة قصيرة في مصيف إيبرماوث المشهور.

كنّا قد قضينا هناك أربعة أيام في سعادة عندما جاء بوارو يحمل في يده خطاباً مفتوحاً قائلاً: هل تذكر صديقي جوزيف آرونس؟

هززت رأسي علامة الإيجاب بعد تفكير غير قصير؛ فقد كان أصدقاء بوارو كثيرين ويتدرجون من الكنّاسين إلى النبلاء، وقال بوارو: حسناً يا هيستنغز، يقيم جوزيف آرونس الآن في شاطئ شارلوك، وقد رجاني أن أخفّ إلى نجدته لحل

مشكلة تزعجه، وأنت تعلم أن جوزيف صديق قديم أدّى لي في الماضي خدمات جليلة، ولا مفر من إجابته إلى طلبه.

– بالتأكيد، إذا كان هذا ما تفكّر فيه، وأعتقد أن شاطئ شارلوك مكان جميل، ومن حسن المصادفات أنني لم أرَه من قبل.

– نستطيع إذن أن نجمع بين العمل والمتعة. ما رأيك في أن تستفسر عن مواعيد القطارات؟

قلت بغير ترحيب: وربما كان ذلك يعني بعض التغيير. أنت تعرف ما يعنيه تغيير القطارات في تلك المسافات الطويلة، فالسفر من جنوب شاطئ ديفون إلى أقصى الشمال معناه أن تستغرق الرحلة يوماً بأكمله.

على أية حال فقد اكتشفت عند الاستعلام عن مواعيد القطارات أننا لن نغيّر القطار سوى مرة واحدة في إكسترا، وأن القطارات مريحة. وتصادف في أثناء عودتي أن مررت بمكتب شركة الحافلات السريعة ورأيت إعلاناً مكتوباً عليه: «غداً رحلة إلى شاطئ شارلوك طوال اليوم. القيام الساعة ٣٠، ٨ صباحاً مع مشاهدة أجمل المناظر في ديفون».

حصلتُ على المعلومات اللازمة عن الرحلة وعدت إلى المسكن متحمّساً لرحلة الحافلة، إلا أن بوارو لسوء الحظ لم يرحب بالفكرة قائلاً: أنت تعلم يا صديقي أن القطار ليس معرَّضاً لانفجار إطار أو لوقوع حادث، كما أن الإنسان

يستطيع أن يغلق النافذة ليتجنب تيار الهواء.

فوجّهت نظره إلى أن الهواء المنعش هو الذي يجعلني أميل إلى رحلة الحافلة فقال: وما رأيك لو أمطرَت؟ الطقس لديكم في إنكلترا غير مستقرّ يا صديقي.

- الحافلة مزوَّدة بغطاء، فضلاً عن أن رحلة القطار سوف تُلغى إذا انهمر المطر.

فقال بوارو: حسناً يا صديقي. من الواضح أنك أعددت نفسك لهذه الرحلة، ومن حسن الحظ أن معي معطفي الثقيل وكوفيّتَين، ولكن هل سيكون لدينا وقت معقول لقضائه على شاطئ شارلوك؟

- حسناً، أخشى أن أقول إننا سنُضطر للمبيت هنالك؛ فالرحلة تتجه إلى دارتمور، وسوف نتناول طعام الغداء في مونكهامبتون ونصل إلى شاطئ شارلوك في نحو الرابعة، ثم تستأنف الرحلة في الخامسة حيث تعود في العاشرة إلى هنا.

- ومع هذا هل يوجد من يقومون بهذه الرحلة للمتعة؟! لا شك أننا سنحصل على تخفيض ما دمنا لن نقوم برحلة العودة.

- لا أظن.

- يجب أن نصمّم على ذلك.

- وبعدُ يا بوارو... لا تكُن بخيلاً! أنت تربح الكثير من

المال.

- ليست المسألة مسألة بخل يا صديقي، بل هو تصرف رجل الأعمال، حتى لو أصبحتُ مليونيراً فلن أدفع أكثر مما هو حق وعدل.

* * *

وكما توقعتُ رفض موظّف شركة الحافلات تخفيض الأجر وكان متشدداً في موقفه، وعندما غادرنا مكتب الشركة تمتم بوارو بضيق: ليس لدى الإنكليز إحساس بقيمة المال. ألم تلاحظ يا هيستنغز ذلك الشابّ الذي دفع أجر الرحلة بالكامل رغم أنه ذكر أنه سوف يغادر الحافلة في مونكهامبتون؟

- لا أعتقد أنني فطنت إليه؛ فقد كنت في الواقع...

- كنتَ مشغولاً بالنظر إلى تلك الشابّة الحسناء التي حجزت المقعد رقم ٥ المجاور لنا. نعم يا صديقي، لقد رأيتك، وكنتُ على وشك أن أحجز المقعدين ١٣ و١٤ على أساس أنهما في وسط الحافلة حين اندفعتَ بحماقة وطلبتَ حجز المقعدين ٣ و٤.

فقلتُ بخجل: حقاً يا بوارو؟

- الشعر الأحمر... إنه الشعر الذي يعجبك دائماً.

- على أية حال فقد كانت الفتاة أجدر بالنظر من الشابّ الغريب.

– هذا يتوقف على وجهة النظر؛ فقد كان الشابّ بالنسبة لي أجدر بالمشاهدة.

أحسست من لهجته أنه فطن إلى ملاحظة لها قيمتها فقلت بفضول: لماذا؟ ماذا تقصد؟

– آه، لا تُقلِق نفسك. هل أقول إن سبب اهتمامي بالشابّ أنه كان يحاول تربية شاربه فكانت النتيجة مضحكة.

ثم تحسس بوارو شاربه الضخم برقّة وأردف يقول: تربية الشارب فنّ، لهذا فأنا أشفق على أولئك الذين يحاولون تربية شواربهم.

أحسست بالحيرة؛ فلم يكُن من السهل أن تعرف متى يقول بوارو الصدق ومتى يمزح على حسابك، ومن هنا آثرت الصمت.

* * *

كان الجو في اليوم التالي صحواً والشمس ساطعة، ومع هذا لم يأمن بوارو الجوّ وأخذ معه معطفه وابتلع قرصين من الدواء على سبيل الاحتياط، ثم حمل كل منّا حقيبة صغيرة.

كانت الشابّة الحسناء التي رأيناها في اليوم السابق تحمل هي الأخرى حقيبة سفر صغيرة، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى الشابّ الذي لفت نظرات بوارو، وفيما عدانا نحن الأربعة لم يكُن بقية الركاب يحملون حقائب.

أخذنا أماكننا في الحافلة، وكان بوارو خبيثاً عندما ترك لي المقعد الداخلي حتى أستمتع بالهواء ليشغل المقعد المجاور للفتاة الحسناء، واقترح عليها أن يتبادلا الأماكن حتى ينقذها من الرجل الثرثار الذي كان يجلس بجوارها، ورحّبت الفتاة بالفكرة وسرعان ما اندمجنا ثلاثتنا في حديث مرح.

كان من الواضح أن الفتاة صغيرة للغاية، ولم تكُن في الواقع تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها، وكشفت عن سر الرحلة التي تقوم بها؛ فقد كانت تقوم بمهمة لحساب عمّتها التي تدير محلاً للعاديّات في إيبرماوث، وكانت تلك العمّة تواجه موقفاً بالغ الصعوبة عندما مات أبوها، ولكنها استغلّت المبلغ القليل الذي تركه أبوها بالإضافة إلى بعض القطع الثمينة لتبدأ عملها الناجح وتكتسب شهرة واسعة في مجال بيع العاديات، وقد جاءت هذه الفتاة (وكانت تُدعى ماري دورانت) لتعمل مع عمتها وتتعلم منها أصول المهنة مفضّلة ذلك على العمل كممرضة.

قال لها بوارو برقّته المألوفة: آنستي، أنا واثق من أنك سوف تحققين نجاحاً، ولكني أحب أن أقدم لك نصيحة بسيطة: لا تكوني مفرِطة الثقة في كل من تقابلينهم. سوف تلتقين بالأشرار والمتشردين في كل مكان في العالَم، حتى في هذه الحافلة التي نركبها. يجب أن يكون الإنسان متشككاً حريصاً على الدوام.

فتحت الفتاة فمها بدهشة وهزّ بوارو رأسه قائلاً: ما

يدريك؟ لعلي أنا شخصياً من أولئك الأشرار العُتاة.

توقفت الحافلة في مونكهامبتون لتناول الغذء، واختار لنا بوارو ركناً في قاعة الطعام بالفندق حيث جلس ثلاثتنا على مائدة بجوار النافذة. وكانت القاعة مملوءة بالروّاد، وأعرب بوارو عن استيائه للزحام والضجيج في الخارج في حين قالت الفتاة التي كانت تجلس بجوار النافذة بحيث ترى حافلة الرحلة: لم تعُد إيبرماوث بالمكان الهادئ خلال الصيف. تقول عمّتي إن المكان كان هادئاً في الماضي، والآن لا يستطيع الإنسان أن يسير فوق الرصيف من شدة الزحام.

فقال بوارو بهدوء: ولكنه مكان يصلح للعمل يا آنسة.

- ربما هو ليس صالحاً لعملنا بصفة خاصة؛ فنحن لا نتاجر في غير الأشياء الثمينة، وزبائن عمّتي منتشرون في طول إنكلترا وعرضها، فإذا طلب أحدهم مقعداً معيَّناً أو مائدة ذات مواصفات خاصّة أو قطعة من الصينيّ النادر فهو يكتب لنا، ونحن نرسل له طلبه إن عاجلاً أو آجلاً، وهذا ما حدث بالنسبة للصفقة الحالية.

بدأ حديث الفتاة يثير اهتمامنا، واسترسلت الفتاة في حديثها تروي قصتها قائلة: طلب أحد الأمريكيين الأثرياء من هواة جمع الأشياء الثمينة (ويُدعى السيد باركر وود) مجموعة دقيقة من التحف، وكانت هذه المجموعة قد عُرضت حديثاً في السوق واشترتها عمتي الآنسة إليزابيث بين، ثم أرسلت خطاباً للسيد وود تصف له فيها المجموعة وتحدّد الثمن، وأجاب

على الفور قائلاً إنه على استعداد لشراء المجموعة لو أنها كانت تحمل نفس الصفات المذكورة في الخطاب، على أن يحملها إليه في مقرّه الحاليّ بشاطئ شارلوك مندوب من قِبل الآنسة بين، واختارتني الآنسة بين لأقوم بهذه المهمة.

وقالت الفتاة في النهاية: إنها مجموعة جميلة، ولكنني لا أتصور أن يدفع فيها الإنسان خمسمئة جنيه! وهي من صنع محلاّت لوسوار، ولكني لست خبيرة في هذه الأشياء الثمينة.

ابتسم بوارو قائلاً: أنت يا آنسة لم تصبحي خبيرة بعد.

وقالت ماري ببراءة: لم أتلقَّ التدريب الكافي. لم يولد الإنسان ليعرف كل شيء عن الأشياء القديمة، وعلى الإنسان أن يتعلم الكثير.

ثم تنهدت الفتاة بعمق، وفجأة رأيتُ عينيها تتسعان فجأة تعبيراً عن الدهشة البالغة، وكانت تنظر عبر النافذة إلى الحديقة، ونهضت واندفعت إلى الخارج مسرعة، ولكنها لم تغِب أكثر من دقائق وعادت تعتذر لخروجها المفاجئ قائلة: أنا شديدة الأسف لخروجي بتلك الصورة، ولكن خُيّل إليّ أن رجلاً كان يحاول أخذ حقيبتي من الحافلة فأسرعت لألحق به، ولكنني اكتشفت أنه كان يأخذ حقيبته التي تشبه حقيبتي تماماً. وقد أحسست بالغباء لأن الأمر بدا كما لو أنني أوجه إليه الاتهام بالسرقة.

ضحكت الفتاة برقّة، ولكن بوارو لم يشاركها الضحك

وقال باهتمام: هل تستطيعين أن تصفي الرجل يا آنسة؟

- شاب يرتدي حُلة بنية اللون وله شارب خفيف للغاية.

- آه، صديق الأمس يا هيستنغز. هل تعرفين الشابّ يا آنسة؟ هل رأيتِه من قبل؟

- لا، لم أرَه قط، ولكن لماذا؟

- لا شيء، هذا كل ما في الأمر أنني أشعر بشيء غريب.

واستسلم بوارو للصمت ولم يحاول أن يشاركنا الحديث، إلى أن ذكرت ماري دورانت في حديثها ما أثار انتباهه فقال: ماذا كنتِ تقولين يا آنسة؟

- كنت أقول إنه يجب عليّ أن أكون شديدة الحرص في رحلة العودة من أولئك الأشرار الذين كنتَ تتحدث عنهم. أعتقد أن السيد وود سيدفع ثمن مشترياته نقداً، وسوف أحمل خمسمئة جنيه، وهو مبلغ ولا شك وسوف يلفت أنظار الأشرار.

وضحكت الفتاة، لكن بوارو لم يستجِب لها في تلك المرة أيضاً، بل على العكس سألها عن الفندق الذي سوف تنزل فيه في شاطئ شارلوك، فقالت الفتاة: فندق آنكور، وهو فندق صغير وأسعار الإقامة فيه رخيصة، ولكنه فندق لطيف للغاية.

فقال بوارو على الفور: هكذا... إنه هو نفس الفندق الذي اختاره هيستنغز. يا لها من مصادفة غريبة!

وغمز لي بوارو بعينه في حين قالت الفتاة: هل ستبقيان في شاطئ شارلوك؟

- ليلةً واحدة فقط؛ لديّ عمل عاجل، ولا أظن أنك تستطيعين أن تخمّني ما مهمّتي يا آنسة.

وراحت ماري تفكر في بضعة احتمالات ثم ترفضها، ربما على سبيل الحذر، ثم قالت في النهاية إن بوارو يعمل ساحراً، فابتهج بوارو كثيراً وقال: آه، يا لها من فكرة مدهشة! هل تفكّرين في أني أُخرج الأرانب من قبّعتي؟ لا يا آنسة، مهنتي على العكس تماماً من مهنة الساحر؛ فالساحر يعمل على إخفاء الأشياء أما أنا فأعمل على إظهار الأشياء المختفية.

ومال بوارو بجسمه قليلاً إلى الأمام وهو يقول للفتاة بطريقة مسرحية: هذا سر ولكنني سوف أكشفه لك يا آنسة. أنا مخبر خاصّ.

وعاد بوارو بكرسيه إلى الوراء مسروراً للأثر الذي أحدثَته كلماته؛ فقد حملقت ماري دورانت في وجه بوارو بدهشة بالغة. ثم توقف الحديث عند هذا الحد؛ فقد انطلقت أبواق السيارات في الخارج.

وبينما كنّا نغادر قاعة الطعام تحدثتُ مع بوارو عن سحر الفتاة التي شاركتنا في الغداء فقال: أجل، الفتاة جذّابة، ولكن

ألا توافقني على أنها حمقاء؟

- حمقاء؟!

- لا داعي للغضب، قد تكون أيّ فتاة حسناء وذات شعر أحمر ومع هذا تتميز بالغباء. أليس من الحماقة الشديدة أن تكشف الفتاة لغريبَين أسرارها بهذه البساطة؟

- لعلها اطمأنّت إلينا.

- هذا غباء؛ فأيّ إنسان يجيد عمله يستطيع أن يتظاهر بالطيبة، وقد تحدثَت هذه الفتاة عن الحذر الذي ينبغي أن تتذرع به عندما تحمل خمسمئة جنيه، ولكنّ معها الآن بالفعل خمسمئة جنيه.

- عبارة عن تحف؟

- نعم، وليس هناك فارق كبير بين التحف والنقود يا صديقي العزيز.

- ولكن لا أحد يعرف شيئاً عن الأشياء التي تحملها.

- بل هناك النادل، وكذلك الأشخاص الذين يعرفون في إيبرماوث. الآنسة دورانت فاتنة ولكن لو أني كنت في موضع الآنسة إليزابيث بين لكان أول واجباتي أن أعلّم هذه الشابّة بعض التعقّل.

وسكت بوارو هنيهة ثم أردف يقول: أنت تعلم يا صديقي أن أسهل شيء في الدنيا أن يأخذ أيّ إنسان واحدة من تلك

الحقائب في أثناء فترة تناول الطعام.

فقلت له معترضاً: لا تقُل هذا يا بوارو. من المؤكد أن أحداً لا يستطيع أن يفعل ذلك دون أن ينتبه إليه الناس.

- وماذا يرى هؤلاء الناس؟ يرون شخصاً يحمل حقيبته، وهذا أمر طبيعي لا يتطلب أن يتنبه إليه الناس.

- ولكن الشابّ الذي يرتدي الحلة البنية، ألم تكُن تلك حقيبته؟

فقال بوارو مقطّباً: هكذا يبدو الأمر، ولكن الموقف يبدو غريباً يا هيستنغز؛ فلماذا لم يحمل الشابّ حقيبته قبل ذلك عندما توقفَت الحافلة ساعة الوصول؟ لعلك قد لاحظت أنه لم يتناول طعامه هنا.

فقلت له: لو لم تكُن الآنسة دورانت جالسة بجوار النافذة لما شاهدته، ونظراً لأن الحقيبة كانت حقيبته بالفعل فلم يكُن للأمر أهمية. فلنطرد هذه الأفكار يا صديقي.

ورغم ذلك فقد ألقى بوارو محاضرة على الفتاة عند ركوبنا الحافلة في ضرورة الحرص ومراعاة الحذر، وتقبّلت الفتاة النصيحة بوداعة وهي تنظر إلى الموضوع بمزاح.

* * *

عندما وصلنا إلى شاطئ شارلوك كنّا محظوظين لأننا وجدنا أماكن في فندق آنكور، وما كاد بوارو يفتح حقيبته

ويُخرج الأدوات الضرورية ويبدأ في دهان شاربه استعداداً للذهاب إلى جوزيف آرونس حتى دوّت طرقة شديدة على الباب، وعندما أذنت للطارق بالدخول فوجئت بماري دورانت ممتقعة الوجه وهي تبكي بكاء حارّاً وتقول لبوارو: أرجو المعذرة، ولكن... لقد وقع المحظور. ألم تقُل إنك مخبر خاصّ؟

قال بوارو بهدوء: ما الذي حدث يا آنسة؟

- فتحت حقيبتي، كانت التحف محفوظة داخل حقيبة صغيرة مصنوعة من جلد التمساح ومغلَقة بالقفل. انظر الآن!

عرضت الفتاة الحقيبة الجلدية الصغيرة التي كانت مفتوحة، وكان من الواضح أن الشخص الذي فتحها استخدم القوة؛ فقد كانت آثار المحاولة واضحة، وسألها بوارو: والتحف؟

فقالت الفتاة باضطراب: اختفت، سُرقت... يا إلهي! ماذا أفعل الآن؟!

قلت لها مواسياً: لا تقلقي، هذا هو صديقي بوارو ولا شك أنك سمعت عنه، وسوف يعيد إليك المسروقات.

قالت الفتاة بدهشة: السيد بوارو... السيد بوارو العظيم!

لم يستطِع بوارو أن يخفي شعوره بالارتياح لكلمات الفتاة، وبدا ذلك في نبرة صوته عندما قال: نعم يا طفلتي،

أنا بوارو بلحمه وشحمه. تستطيعين أن تتركي الأمر بين يديّ، وسوف أفعل ما أستطيع، فيما عدا أنّي أخشى بحق أن يكون الوقت قد أصبح متأخراً. أخبريني، هل فُتح قفل الحقيبة الكبيرة بالقوة أيضاً؟

هزّت الفتاة رأسها فقال بوارو: سأفحصها من فضلك.

ذهبنا جميعاً إلى غرفتها وفحص بوارو حقيبة السفر بإمعان، وكان من الواضح أنها فُتحت بمفتاح فقال بوارو: الأمر في غاية البساطة؛ فمثل هذه الحقائب يُفتح بمفاتيح عادية. حسناً يا صديقي، يجب أن تُخطر الشرطة ثم تقوم بالاتصال بالسيد باركر وود بأسرع وقت ممكن. سوف أتولّى هذه المهمة بنفسي.

خرجتُ معه وسألته عمّا كان يعنيه بقوله إنه يخشى أن يكون الوقت قد أصبح متأخراً، فأجابني قائلاً: يا صديقي، لقد قلتُ اليوم إن مهنتي على العكس تماماً من مهنة الساحر، أي أنني أعمل على إظهار الأشياء التي تختفي. ولكن لنفترض أن شخصاً سبقني إلى ذلك... هل فهمت؟ سوف تتبيّن لك الحقيقة خلال دقيقة.

اختفى بوارو داخل كشك الهاتف ثم عاد بعد خمس دقائق متجهماً وقال: صحّ ما توقعتُه؛ منذ نصف ساعة توجهَت سيدة إلى السيد وود ومعها قطع التحف قائلة إنها مندوبة من قِبل الآنسة إليزابيث بين، وقد أُعجب الرجل بالقطع الثمينة ودفع الثمن في الحال.

فقلت بدهشة: منذ نصف ساعة؟ أي قبل وصولنا!

ابتسم بوارو ابتسامة غامضة وهو يقول: الحافلات السريعة سريعة حقاً، ولكن سيارة سريعة تقوم من مونكهامبتون تستطيع أن تسبقنا بساعة على الأقل.

- وكيف نتصرف الآن؟

- هيستنغز الطيّب رجل عملي دائماً. سوف نُخطِر الشرطة ونفعل ما في وسعنا لمساعدة الآنسة دورانت، ولا بدّ لنا من مقابلة السيد باركر وود.

* * *

نفّذنا البرنامج الذي أشار إليه بوارو، وكانت ماري دورانت التعسة في أسوأ حال وتخشى أن توجّه إليها عمتها اللوم، وقال بوارو معلّقاً على ذلك ونحن في طريقنا إلى فندق السيد وود: من المحتمَل أن تفعل العمة ذلك، ولديها كل الحق؛ كيف تترك الفتاة الحقيبة وفيها قطع ثمينة تساوي خمسمئة جنيه وتذهب إلى صالة الطعام؟ ومع هذا يا صديقي العزيز فهناك حقيقة أو حقيقتان بشأن تلك الحقيبة الجلدية الصغيرة تلفتان النظر. فمثلاً لماذا فُتح القفل بالقوة؟

- للحصول على القطع الثمينة.

- ولكن ألم تكُن حماقة؟ كان باستطاعة اللص أن يتظاهر بالبحث عن حقيبته وينقل الحقيبة الجلدية الصغيرة إلى حقيبته دون أن يضيع الوقت في محاولة فتحها بالقوة.

- لعله كان يريد التأكد من وجود القطع الثمينة.

لم يقتنع بوارو بهذه التبرير، وانقطع الحديث عندما سُمح لنا بمقابلة السيد وود.

ولم أشعر بالارتياح للسيد وود منذ النظرة الأولى؛ فقد كان طويلاً شديد العناية بثيابه ويزيّن إصبعه بخاتم ذي ماسة كبيرة، فضلاً عن ثرثرته ورغبته في الحديث بصوت مرتفع.

قال السيد وود إنه لم يشعر بالارتياب، فلماذا يشك في الأمر؟ لقد كانت المندوبة تحمل القطع الثمينة بالفعل. وعندما سأله عمّا إذا كانت لديه أرقام الأوراق المالية التي دفعها قال: بالطبع لا. ثم قال: وعلى أية حال، من يكون السيد بوارو؟ وبأيّ صفة يوجّه إليّ كل هذه الأسئلة؟

قال بوارو بهدوء: لن أوجّه إليك أكثر من سؤال واحد أخير: هل تذكر أوصاف السيدة التي أحضرت إليك التحف الثمينة؟ هل كانت شابّة؟

- لا يا سيدي. كانت سيدة طويلة في منتصف العمر شعرها رمادي ووجهها مليء بالبثور، ولها شارب خفيف.

* * *

وعندما غادرنا الفندق قلت لبوارو بدهشة: شارب خفيف! ألم تسمع يا بوارو؟

- لديّ أذنان تسمعان جيداً يا هيستنغز، شكراً لك.

- لكن يا له من رجل مزعج!

- ليس جذّاباً على أية حال.

- حسناً، يجب أن نقبض على السارق، ونحن نستطيع أن نتعرف عليه بسهولة.

- أنت ساذج إلى أبعد الحدود يا هيستنغز. ألم تسمع عن وجود ما يُسمّى بالشاهد؟

- هل تظن أن لديه شاهداً يشهد على وجوده معه في الوقت الذي حدثت فيه السرقة؟

أجاب بوارو على غير المتوقع بقوله: أنا أرجو ذلك من صميم قلبي.

فقلت له بضيق: مشكلتك أنك تحب أن تكون المشكلات معقَّدة وصعبة.

- هذا صحيح تماماً يا صديقي، أنا لا أحب... ماذا تسميه؟ الطائر الجالس في انتظارك.

* * *

كان بوارو محقّاً في نبوءته، فقد اتضح أن زميلنا في السفر صاحب الحُلة البنية يُدعى السيد نورتون كين، وأنه توجّه رأساً عند وصولنا إلى مونكهامبتون إلى فندق جورج وظل ملازماً الفندق طوال فترة ما بعد الظهر، ودليل الاتهام الوحيد ضده هو شهادة الآنسة دورانت التي قالت إنها شاهدته يعبث

بالحقائب ساعة الغداء.

علّق بوارو على ذلك قائلاً: وهذا العمل ليس فيه أيّ خطأ.

والتزم بوارو الصمت بعد هذا التعليق ورفض أن يستأنف الحديث في الموضوع، وعندما ألححت عليه قال: أنا أفكّر في الشوارب بصفة عامة، وأنصحك أنت أيضاً أن تفكر في نفس الموضوع.

وقد اكتشفت على أية حال أن بوارو طلب من جوزيف آرونس عندما التقى به في المساء أن يزوّده بكل المعلومات التي يعرفها عن السيد باركر وود، فقد كان الاثنان يقيمان في نفس الفندق. وأياً كانت المعلومات التي حصل عليها بوارو فقد احتفظ بها لنفسه.

عادت الآنسة دورانت إلى إيبرماوث بالقطار صباح اليوم التالي بعد بضعة لقاءات مع رجال الشرطة، وأخبرني بوارو أنه أنهى مشكلة السيد جوزيف آرونس على وجه مُرض، وقال إنه على استعداد للعودة مشترطاً ركوب القطار في تلك المرة. وقلت له ضاحكاً: هل تخشى أن تُنشَل نقودك أم لعلك تخشى أن تلتقي مرة أخرى بفتاة في ورطة؟

- كِلا الأمرين يمكن أن يحدث لي في القطار أيضاً يا هيستنغز، ولكن السبب أنني أريد العودة بسرعة إلى إيبرماوث لاستئناف تحرياتي في قضيتنا.

- قضيتنا؟

- نعم يا صديقي، لقد التمسَت الآنسة دورانت مساعدتي، ونظراً لأن القضية قد أصبحت الآن بين أيدي رجال الشرطة فأنا لست حرّاً في أن أنفض يديّ من الأمر حتى لا يقال إن هيركيول بوارو تخلّى عن مساعدة غريب في محنة.

- أعتقد أنك كنت مهتماً بذلك الشابّ في أثناء وجودنا بمكتب شركة الحافلات السياحية، وإن كنت لا أعلم سبب اهتمامك.

قال بوارو باسماً: وأنت يا هيستنغز كان ينبغي لك أن تهتمّ به مثلي. حسناً، حسناً، سوف يظل هذا هو سري الصغير الذي أحتفظ به.

* * *

التقينا قبل سفرنا بمفتش الشرطة الذي يتولى التحقيق في القضية، وكان المفتش قد التقى بالسيد نورتون كين، وصرح المفتش لزميلي بأن السيد كين اضطرب وتناقض في أقواله، وأضاف المفتش بحيرة: ولكنني لا أدري كيف نجحت الحيلة! ربما كان للسارق صديق استقل سيارة سريعة، ولكن هذه مجرّد نظرية ويجب أن نعثر على السيارة والشريك لنقيم الدليل.

وسألت بوارو بفضول عندما اتخذنا أماكننا في القطار: هل تعتقد أن هذه هي الكيفية التي ارتُكبت بها السرقة؟

- لا يا صديقي، كانت الفكرة أكثر ذكاء من ذلك بكثير.

- ألا تخبرني بوجهة نظرك؟

- ليس بعد. أنت تعرف نقطة الضعف فيّ، فأنا لا أكشف السر حتى اللحظة الأخيرة.

- وهل ستجيء اللحظة الأخيرة عاجلاً؟

- بأسرع مما تتصور يا صديقي.

* * *

وصلنا إلى إيبرماوث بعد السادسة بقليل وتوجهنا على الفور إلى المحلّ الذي يحمل اسم إليزابيث بين، وكان المحل مغلَقاً، ولكن بوارو ظل يضغط جرس الباب بإصرار. وفوجئنا بماري تفتح لنا الباب بنفسها معبّرة عن دهشتها وسرورها لرؤيتنا، وطلبَت منّا الدخول ومقابلة عمتها التي كانت تجلس في حجرة خلفية.

وقفت العجوز مرحّبة بقدومنا، وكان شعرها أبيض وتبدو كقطعة من العاديات العتيقة التي تتاجر فيها، وقالت بصوت هادئ ساحر: أهذا هو السيد بوارو العظيم؟ كانت ماري تحدثني عنك وكان من الصعب عليّ أن أصدق. هل نطمع في أن تساعدنا حقاً؟

- آنسة بين، التأثير ساحر ولكن يجب أن تنمّي

شاربك.

فشهقت الآنسة بين في ارتياع وتراجعت إلى الخلف في حين أردف بوارو: لقد تغيبتِ عن عملك بالأمس، أليس كذلك؟

- كنت في المحلّ صباحاً، وعدت إلى المنزل عندما شعرت بصداع شديد.

- ليس إلى المنزل يا آنسة، لقد رأيت العلاج الأفضل للصداع أن تستنشقي الهواء، أليس كذلك؟ نسيم شاطئ شارلوك المنعش على ما أعتقد.

وأمسك بوارو بذراعي وجذبني إلى الخارج، وقبل أن ننفذ من الباب التفت إلى العجوز قائلاً: لعلك تدركين أنني أعلم كل شيء. هذه المهزلة الصغيرة يجب أن تتوقف.

يبدو أن لهجة بوارو كانت تحمل معنى التهديد لأن العجوز هزّت رأسها موافقة على كلامه. والتفت بوارو للفتاة قائلاً: وأنت يا آنسة... أنت شابة حسناء، ولكن الاشتراك في مثل هذا العمل قد يكلفك التواري خلف أسوار السجون! وإذا حدث ذلك فسوف يكون أمراً مؤسفاً حقاً.

خطا بوارو بعد ذلك إلى الطريق وأنا أتبعه في حيرة، ثم قال: لقد بدأ اهتمامي عندما رأيت ذلك الشابّ في مكتب الشركة يحجز تذكرة إلى مونكهامبتون فقط، ثم رأيت نظرات الفتاة تتجه إليه باهتمام، فلماذا؟ لم يكُن الشابّ جذاباً ولا

من ذلك الطراز الذي يجتذب أنظار الشابات. وعندما ركبنا الحافلات أحسست أن شيئاً سوف يحدث. مَن الذي شاهد الشابّ يعبث بالحقيبة؟ الآنسة، والآنسة وحدها، وتذكّر أنها هي التي اختارت مكانها في الحافلة، وهو ليس بالمكان المفضَّل للسيدات.

وسكت بوارو هنيهة ارتسمت خلالها ابتسامة ساخرة على شفتيه ثم أردف يقول: ثم تجيء الفتاة لتخبرنا بالسرقة وقصة القفل المفتوح عنوة، وقد قلت لك قبل ذلك إن الأمر بدا لي سخيفاً، وما النتيجة؟ يكون السيد باركر وود قد دفع ثمن بضاعة مسروقة ويجب أن تُعاد المسروقات إلى الآنسة بين، وهكذا فبدلاً من أن تبيع الآنسة بين التحف بخمسمئة جنيه تبيعها بألف، وقد تأكدتُ من خلال تحرياتي أن أحوالها المالية ليست على ما يُرام، فقلت على الفور إنها لعبة تشترك فيها الشابّة الحسناء مع العمة العجوز.

- أتعني أنك لم تشكّ لحظة واحدة في أن يكون نورتون كين هو السارق؟

- بذلك الشارب يا صديقي؟ المجرم يحرص على أن يكون حليق الشارب أو كثّ الشارب حتى يتخلص منه عند اللزوم، ويا لها من فرصة تستغلها الآنسة بين بذكائها الخارق. سيدة عجوز مغضَّنة الوجه تستطيع أن تستعين بالمساحيق لتنشر البثور على وجهها ثم تضع شعيرات خفيفة على الشفة العليا وتلبس حذاء يرفع قامتها كالرجال، فماذا تكون النتيجة؟ سيدة

تشبه الرجال. ألم يكُن هذا ما قاله السيد وود؟ ولكن هذا الوصف يصبح في نظري سيدة تتنكر في شكل رجل.

- وهل تعتقد أنها ذهبت بالأمس إلى شاطئ شارلوك؟

- بكل تأكيد، ولعلك تذكر أنك قلت لي إن القطار يصل إلى شارلوك في الساعة الثانية، ولعله يقطع رحلة العودة في وقت أقصر، وهكذا تكون التحف لم توضع أصلاً في الحقيبة الجلدية الصغيرة، ومشكلة القفل المكسور كانت قد أُعدّت في فترة سابقة على الرحلة. كان على الآنسة ماري أن تبحث عن اثنين من السذّج الذين تتناول معهم الحديث وتغريهم بسحرها ليكونا شاهدَين على المحنة التي تواجهها، ولكن واحداً من هذين الساذجَين لم يكُن ساذجاً، لأنه كان هيركيول بوارو.

لم تعجبني تلك الملاحظة وقلت بسرعة: إذن فقد كنت تخدعني عندما قلت إنك تساعد غريباً في محنته؟

- أنا لم أحاول أن أخدعك يا هيستنغز، بل أنت الذي تسمح لنفسك بالوقوع فريسة الخداع. لقد كنتُ أشير إلى السيد باركر وود عندما كنت أقول إن بوارو لا يتخلّى عن مساعدة الغرباء في محنتهم. كان السيد باركر وود يزور شاطئ شارلوك، فهو إذن غريب عن المكان، وأنا وأنت يا هيستنغز كنّا نزور الشاطئ، ويجب أن نناصر الغرباء.

* * *

عش الدبّور

خرج جون هاريسون من المنزل ووقف في الشرفة يُطلّ على الحديقة. وكان هاريسون رجلاً طويلاً نحيل الوجه شاحب اللون، وكان ساعة خروجه مكتئباً عابساً، إلا أن الابتسامة سرعان ما علت شفتيه وهو ينظر بافتتان إلى حديقته الجميلة بزهورها التي يعطّر أريجها المكان ويضفي عليه سحراً وجمالاً. كان جون هاريسون يحب حديقته ويُعنى بها عناية خاصة، وكانت حديقته في ذلك الوقت من شهر أغسطس في أبهى زينتها.

سمع جون هاريسون صرير باب الحديقة وأدار وجهه ناحية الصوت في حدّة ليرى القادم مِن باب الحديقة، وظهرت على وجه هاريسون بعد لحظات علامات من الدهشة البالغة لأنه سرعان ما تبيّن أن القادم آخِر إنسان في العالَم كان يتوقع وجوده في ذلك المكان، وصاح هاريسون: يا إلهي، السيد بوارو؟!

كان القادم بحق بوارو، هيركيول بوارو المخبر العظيم الذي ذاع صيته كمخبر في كل أرجاء العالم.

قال بوارو: نعم، هذا أنا حقاً. لقد قلتَ لي ذات يوم: "تعالَ لتراني إذا وجدت نفسك قريباً من المكان". وأنا أربطك

بوعدك، وها أنا ذا قد جئت.

قال هاريسون بحرارة: أنا سعيد لرؤيتك. اجلس لنتناول بعض المرطبات.

أحضر هاريسون كأسين من العصير، وجلس بوارو ثم تابع حديثه قائلاً: للأسف أصبح شاربي جافّاً من شدة الحرارة!

فسأله هاريسون وهو يجلس على مقعد مقابل: وما الذي أتى بك إلى هذه البقعة الهادئة؟ أهي المتعة؟

- لا يا صديقي، بل العمل.

- العمل؟! في هذا المكان المنعزل عن العالم؟

هزّ بوارو رأسه بأسى وقال: نعم يا صديقي، أنت تعلم أنه ليس كل الجرائم يُرتكب وسط الزحام.

فضحك هاريسون وهو يقول: أعتقد أن ملاحظتي كانت ملاحظة سخيفة، ولكن أيّ نوع من الجريمة تحقق فيه هنا؟ أم لعله ليس من حقي أن أسأل؟

فقال بوارو بهدوء: تستطيع أن تسأل، بل في الواقع أفضّل أن توجّه السؤال.

فنظر إليه هاريسون بدهشة وقد أحس أن في الأمر شيئاً غير عادي وقال: كنت تقول إنك تحقق في جريمة، أهي جريمة خطيرة؟

- جريمة من أخطر الجرائم.

- تعني...؟

- جريمة قتل.

نطق بوارو بتلك العبارة بطريقة جادة جعلت هاريسون يعتدل في جلسته باهتمام، وكان المخبر في نفس الوقت يحدّق إلى وجه هاريسون بطريقة مثيرة جعلت الرجل يشعر بالحيرة والارتباك، ثم قال أخيراً: ولكنني لم أسمع عن جريمة وقعت قريباً من هذا المكان.

فقال بوارو بهدوء: لم يكُن باستطاعتك أن تسمع عنها.

- من الذي قُتل؟

- لا أحد حتى هذه اللحظة.

- ماذا؟!

- لهذا قلت لك إنه لم يكُن باستطاعتك أن تسمع عن الجريمة. أنا أحقق في جريمة لم تقع بعد.

- ولكن هذا الذي تقوله هراء.

- لا، مطلقاً. إذا كان الإنسان يستطيع أن يحقق في الجريمة قبل وقوعها فمن المؤكَّد أن هذا أفضل من التحقيق بعد ارتكاب الجريمة، بل لعل الإنسان يستطيع أن يمنع وقوع الجريمة.

حدّق هاريسون إلى وجه المخبر بدهشة ثم قال: لا أظن أنك جادّ فيما تقول يا سيد بوارو.

- ولكني أؤكد لك أنني جادّ تماماً.

- وهل تؤمن حقاً أن الجريمة توشك أن تُرتكب؟ يا إلهي، ولكن هذا هراء!

قال بوارو بهدوء: نعم، أؤمن أنها ستُرتكب... ما لم نتعاون معاً على منع وقوعها.

- أتقول: نتعاون معاً؟!

- نعم، هذا ما قلته لأنني سوف أحتاج إلى مساعدتك.

- أهذا هو سبب مجيئك إلى هنا؟

مرة أخرى أطال بوارو النظر إلى وجه هاريسون مما أثار القلق في نفس الأخير، وأردف بوارو يقول: لقد جئت إلى هذا المكان يا سيد هاريسون لأنني... لأنني... حسناً، لأنني في الواقع لأنني أحبك.

سكت بوارو برهة ثم تابع حديثه قائلاً: أرى يا سيد هاريسون أن لديك عشاً للدبابير، ويجب أن تتخلص من ذلك العش.

كان لتغيير دفّة الحديث أثره في ازدياد القلق الذي يشعر به هاريسون، فقال لبوارو بحيرة: سوف أفعل ذلك في الواقع، أو بمعنى أصحّ سوف يقوم بهذه المهمة لانغتون الشاب. هل

تذكر كلود لانغتون؟ لقد كان يتناول معي طعام العشاء عندما قابلتك آخر مرة، وسوف يأتي الليلة ليزيل العش؛ فهو يجد متعة خاصّة في القيام بهذا العمل.

قال بوارو بهدوء: آه، وكيف يؤدي هذه المهمة؟

- بالنفط، عن طريق رشاشة النفط. سوف يحضر رشاشته معه لأنها أنسب لهذه المهمة من رشاشتي.

- توجد طريقة أخرى، أليس كذلك؟ بواسطة سيانيد البوتاسيوم.

فاضطرب هاريسون قليلاً ثم قال: بلى، ولكن تلك المادة بالغة الخطورة، ومجرّد وجودها في المكان يمثل خطراً مميتاً.

هزّ بوارو رأسه مؤمّناً ثم قال: أجل، فهي سمّ قاتل. وسكت بوارو هنيهة ثم كرر قوله: سم قاتل.

قال هاريسون مازحاً: ولكنها مفيدة إذا فكّرت في التخلص من حماتك!

ظلّ بوارو عابس الوجه ثم أردف يقول: ولكن هل أنت واثق يا سيد هاريسون من أن السيد لانغتون سوف يستخدم طريقة الرش بالنفط للتخلص من عش الدبابير؟

- تمام الثقة. ولكن لماذا؟

- الذي أثار دهشتي أنني كنت في صيدلية بارشستر

بعد ظهر اليوم، ونظراً لأن إحدى الموادّ التي اشتريتها كانت تتطلب منّي التوقيع على الدفتر المعَدّ لمشتريات السموم فقد لاحظت أن الذي وقّع على آخر المشتريات يحمل اسم كلود لانغتون.

قال هاريسون بدهشة: هذا غريب! لقد أخبرني لانغتون في الليلة الماضية أنه لم يفكّر قط في استخدام هذه المادة وأضاف أنه من الواجب ألا تُعرَض هذه المادة للبيع.

تظاهر بوارو بالنظر إلى الزهور وكان صوته هادئاً تماماً عندما قال: هل تحب لانغتون؟

فوجئ هاريسون بالسؤال، ولم يكُن مستعداً للإجابة على مثله فقال باضطراب ظاهر: أنا... حسناً، أنا أحبه بالطبع، أحبه ولا شك، ولماذا لا أحبه؟

فقال بوارو بهدوء: كنت أتساءل عمّا إذا كنت تحبه حقاً.

ونظراً لأن هاريسون لم يُجِب فقد تابع بوارو حديثه قائلاً: كما أنني أتساءل أيضاً إذا كان هو بدوره يحبك.

- ما الذي تقوله يا سيد بوارو؟ هناك فكرة تُلحّ على ذهنك لا أستطيع أن أتبينها.

- سوف أكون صريحاً معك. أنت مرتبط بمشروع للزواج يا سيد هاريسون، أنا أعرف الآنسة مولي دين وهي فاتنة جميلة جداً، وقد كانت مخطوبة قبل ارتباطها بك لكلود لانغتون،

وقد فسخت خطوبتها منه لترتبط بك.

هزّ هاريسون رأسه مؤمّناً في حين تابع بوارو حديثه قائلاً: أنا لا أسألك عن الأسباب التي أدّت إلى فسخ الخطوبة فقد تكون هناك أسباب وجيهة، ولكن الذي أودّ أن ألفت نظرك إليه هو أن لانغتون ربما لم ينسَ الموضوع، ولعله لم يصفح.

- أنت مخطئ في هذا يا سيد بوارو، أقسم لك إنك مخطئ؛ لقد كان لانغتون رياضياً وتقبّل الموضوع بروح رياضية كرجل مهذّب، وكان رقيقاً جداً في معاملته لي واستمرّت صداقتنا كأنما لم يحدث شيء.

- ألا يبدو ذلك غريباً؟ قد يُخفي الإنسان مشاعر الحقد ولا يسمح لها بالظهور إلا في الوقت المناسب.

هزّ هاريسون رأسه بإصرار وهو يقول: الحقد؟ لا.

- الإنكليز أغبياء جداً، يظنون أنهم يستطيعون خداع أيّ إنسان وأنّ أحداً لا يستطيع أن يخدعهم. وذلك الرجل المهذَّب، لا يصدقون أنه قادر على إلحاق الأذى بهم أبداً.

فقال هاريسون بصوت منخفض: أنت تريد أن تحذّرني... أنا أدرك الآن ما كان يحيرني طول الوقت، أنت تحذرني من كلود لانغتون، لقد جئت اليوم لتحذرني منه.

فأومأ بوارو برأسه مؤمّناً، وفجأة قفز هاريسون من مقعده قائلاً: ولكنك مجنون يا سيد بوارو؛ فنحن في إنكلترا والأمور لا

تجري على هذا المنوال هنا. الشابّ الذي يفقد حبيبته لا يطعن الناس في ظهورهم مستتراً بالظلام ولا يدسّ لهم السم! أنت مخطئ فيما تنسبه إلى لانغتون، وهذا الشابّ لا يستطيع أن يؤذي بعوضة.

- أرواح البعوض لا تعنيني في شيء، ورغم أنك تقول إن السيد لانغتون لا يستطيع أن يقضي على حياة واحدة فأنت تنسى أنه يُعدّ العدّة الآن ليقتل أرواح بضعة آلاف من الدبابير.

فلم يُجِب هاريسون على الفور، ووقف المخبر بدوره واقترب من صديقه ليضع يده على كتفه. كان بوارو مضطرباً إلى الدرجة التي كاد معها أن يهزّ هاريسون ويسقطه على الأرض، وهمس بوارو في أذن صديقه قائلاً: قف يا صاحبي، انهض وانظر إلى حيث أشير بأصابعي، هناك على الشاطئ بالقرب من جذع الشجرة الكبيرة، ألا ترى الدبابير عائدة إلى بيوتها آمنة في نهاية اليوم؟ بعد ساعة سوف يحلّ بها الدمار، إذ يبدو أنه ليس بين الدبابير هيركيول بوارو. أقول لك بأمانة يا سيد هاريسون: أنا قادم إلى هذا المكان في مهمّة، وهي أن أمنع هذه الجريمة.

ثم نظر في عينَي الرجل وقال: في أيّ وقت يصل السيد لانغتون ليزيل العش؟

- لن يفكر لانغتون أبداً في أن...

- متى يصل؟

- في التاسعة، ولكني أؤكد لك أنك مخطئ. لانغتون لا يمكن بحال أن...

- يا لهؤلاء الإنكليز!

قالها بوارو بانفعال وهو يأخذ قبعته وعصاه ويتوجه نحو الحديقة، ثم استدار وقال لصديقه: لن أبقى هنا أضيع الوقت في الجدل معك لأن ذلك سوف يثير أعصابي، ولكنني أودّ أن تعلم أنّي سوف أعود في التاسعة.

فتح هاريسون فمه ليتكلم ولكن بوارو لم يتِح له الفرصة وقال: أعرف ما تريد أن تقوله، ستقول إن لانغتون لن يرتكب قط كذا وكذا... نعم، لانغتون قد لا يرتكب شيئاً، ولكنني سوف أعود على أية حال في تمام التاسعة، وسوف أحس بالمتعة حين أشاهد إزالة عش الدبابير، فهذه واحدة من رياضاتكم الإنكليزية.

ولم ينتظر بوارو ردّاً بل انطلق من الباب كالسهم، وعندما أصبح في الخارج أبطأ خطواته وفترت حماسته وظهر القلق على وجهه، وأخرج الساعة من جيبه ليعرف الوقت. كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق فهمس لنفسه: ما يزيد على ثلاثة أرباع الساعة! ألم يكُن من الأصوب أن أنتظر؟

فكّر بوارو في العودة، ولكنّ خاطراً جعله يتراجع عن فكرته فاستمر في سيره نحو القرية، ولكنه كان لا يزال يحس

بالاضطراب، وهزّ رأسه أكثر من مرة وكأنه يعبّر عن عدم اقتناعه.

* * *

كان أمام بوارو بضع دقائق قبل التاسعة عندما اقترب من الحديقة، وكانت السماء صافية والهواء راكداً بحيث لا يُسمَع حفيف أوراق الشجر، وكان الصمت الذي يخيّم على المكان كالهدوء الذي يسبق العاصفة.

أسرع بوارو الخطى وهو يحسّ بخطر لا يستطيع أن يحدد مصدره، وسمع باب الحديقة يُفتح ثم رأى كلود لانغتون يخرج مندفعاً إلى الطريق، وفوجئ الشابّ عندما رأى بوارو وقال متلعثماً: آه، مساء الخير.

- مساء الخير يا سيد لانغتون. أراك جئتَ مبكراً عن موعدك.

حملق لانغتون في وجه المخبر وهو يقول: لا أفهم ما تعنيه يا سيدي.

- هل تخلصت من عش الدبابير؟

- لم أفعل ذلك في الواقع.

قال بوارو بهدوء: إذن فلم تقضِ على عش الدبابير، ما الذي فعلته إذن؟

- كل ما حدث أنني جلست مع هاريسون العجوز لنثرثر

بعض الوقت، ويجب أن أسرع يا سيد بوارو. لم أكن أظن أنك يمكن أن تظهر في هذه البقعة من العالَم.

- كان لديّ عمل هنا كما ترى.

- حسناً، سوف تجد هاريسون في الشرفة، ويؤسفني أنني لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك.

أسرع لانغتون في طريقه وبوارو يتبعه بنظراته، وكان الشابّ يبدو عصبياً فتمتم بوارو لنفسه: إذن فسوف أعثر على هاريسون في الشرفة؟ هذا يدهشني في الواقع.

كان هاريسون جالساً في الشرفة على مقعد بجوار المنضدة في صمت دون أدنى حركة، ولم يلتفت نحو بوارو حينما عبر الشرفة فقال: صديقي، هل أنت بخير؟

مرّت فترة قصيرة قبل أن يتململ هاريسون في جلسته ويتحدث بصوت غريب هادئ قائلاً: ماذا كنتَ تقول؟

- كنتُ أسألك: هل أنت بخير.

- بخير؟ نعم، أنا بخير، ولماذا لا أكون بخير؟

- ألا تشعر بأي آثار ضارة؟ هذا حسن جداً.

- آثار ضارة؟ من أي شيء؟

- من صودا الغسيل.

وقف هاريسون ثم سأل بحدّة: صودا الغسيل؟! ماذا

تعني بالله عليك؟

قال بوارو: أنا أعتذر بشدة لما اضطرّتني إليه الظروف. لقد وضعت بعض صودا الغسيل في جيبك.

- وضعتَ بعضها في جيبي! ولكن لماذا بالله عليك؟

حملق هاريسون في وجه بوارو في حين تكلّم بوارو كأنه مدرّس يشرح درساً لطفل صغير فقال: من مزايا العمل كمخبر (أو من مساوئ تلك المهنة) أنك تُضطر للتعامل مع مختلف طبقات المجرمين، وهؤلاء المجرمون يعلّمونك أشياء كثيرة فريدة من نوعها. التقيت ذات يوم بأحد النشالين، وكانت قد وُجّهت إليه تهمة باطلة كان بريئاً منها تماماً واستطعت أن أثبت براءته، وأراد أن يعبّر لي عن اعترافه بالجميل فدفع لي الثمن بالطريقة الوحيدة التي يملكها؛ أن يعلّمني بعض الحيل. وهكذا تعلمت كيف أنشل جيب الضحية دون أن يفطن إلى ذلك، أتظاهر بالاضطراب وأضع يدي على كتفه بحيث لا يشعر بشيء، وفي نفس اللحظة أنقل ما في جيبه إلى جيبي وأترك له في جيبه صودا الغسيل.

سكت بوارو هنيهة ثم أردف يقول بصوت حالم: لو أراد رجل أن يضع بعض السم القاتل في كوب بأسرع ما يمكن ودون أن ينتبه إليه أحد فهو يضع السمّ في جيب السترة الأيمن دون أيّ مكان آخَر، لقد كنتُ متأكداً أنه موضوع في ذلك المكان.

ودسّ بوارو يده في جيبه وأخرج بعض البلورات الصغيرة

قائلاً: في منتهى الخطورة أن يحمل الإنسان شيئاً كهذا.

أخرج بوارو في هدوء تام من الجيب الآخر زجاجة ذات فوهة واسعة وألقى في داخلها البلورات ثم ملأها بالماء تماماً في حين كان هاريسون يراقبه، وعندما اطمأنّ بوارو إلى النتيجة التي يرجوها نزع السدادة عن فوهة الزجاجة ثم سكب السائل على عش الدبابير ووقف على بعد خطوات يترقب النتيجة. كانت بعض الدبابير قادمة من الخارج لتدخل العشّ، ولم تكَد تلمس العش حتى ارتعشت ثم كفّت عن الحركة، وبدأت بعض الدبابير تخرج من العش لتلقى حتفها على الفور.

ظل بوارو يراقب المنظر بعض الوقت، ثم هزّ رأسه وعاد إلى الشرفة قائلاً لهاريسون: موت سريع، سريع للغاية.

عندما استعاد هاريسون قدرته على النطق قال: إلى أيّ مدى تعلم الحقائق؟

ركّز بوارو النظر في عينَي هاريسون وهو يقول: كما قلتُ لك، لقد رأيت اسم كلود لانغتون مسجَّلاً في دفتر السموم، أما ما لم أخبرك به فهو أنني صادفته بعد ذلك مباشرة، وقد أخبرني بأنه كان يشتري سيانيد البوتاسيوم بناء على طلبك أنت لتدمير عش الزنابير. وقد أثار هذا انتباهي لأنني أتذكّر أنك تكلمت معي ذات يوم عن حسنات استخدام النفط واستنكرتَ السيانيد باعتباره خطيراً جداً. وعرفتُ شيئاً آخر... لقد رأيتُ كلود لانغتون ومولي دين معاً في مكان لم يتوقعا أن يراهما فيه أحد. قد لا أعرف تلك المشاجرة التي جعلت المحبين

يفترقان ودفعت الفتاة إليك، ولكنني أدركت بأن سوء التفاهم بينهما قد زال وأن الآنسة دين كانت في طريق عودتها إلى خطيبها الأول.

- وماذا أيضاً؟

- لقد علمت شيئاً آخر يا صديقي. كنتُ في شارع هارلي قبل أيام ورأيتك تخرج من عيادة طبيب معين، وأنا أعرف الطبيب وأعرف المرض الذي يلجأ إليه الناس من أجله، وقد قرأت التعبير على وجهك. إنه تعبير لا يمكن الخطأ فيه... تعبير رجل حُكم عليه بالإعدام. أنا على حق في هذا، أليس كذلك؟

- تماماً، وقد قدر الطبيب أنني لن أعيش سوى شهرين.

- أنت لم ترني يا صديقي لأنك كنت مشغولاً بأمور أخرى تفكر فيها. وقد في وجهك ذلك الشيء الذي قلت لك عصر اليوم إن الرجال يحاولون إخفاءه... رأيت فيه الكراهية يا صديقي. أنت لم تكلف نفسك عناء إخفائها لأنك لم تظنّ أن أحداً كان يراقبك.

- استمر.

- لم يعد لديّ الكثير. جئتُ هنا ورأيت اسم لانغتون عرَضاً في سجل السموم كما قلت لك، ثم قابلته وجئت إلى هنا. واستدرجتك لتقع في الفخ؛ فأنت أنكرت أنك طلبت من لانغتون الحصول على السيانيد، وفوجئتَ في البداية لرؤيتي

ولكنك سرعان ما أدركت أن وجودي سيكون مناسباً لما تفكر فيه فشجعت شكوكي. وكنت أعرف من لانغتون نفسه أنه سيأتي هنا في الساعة الثامنة والنصف لكنك قلت إنه سيحضر في التاسعة معتقداً أنني سآتي لأجد كل شيء منتهياً... وهكذا كنت أعرف كل شيء.

- ليتك لم تأتِ!

قال بوارو بجدية: لقد قلت لك إن القتل هو اختصاصي.

- القتل؟ بل قل الانتحار.

- كلا، بل أعني القتل. أنت كنت ستموت سريعاً موتاً سهلاً، أما لانغتون فهو الذي اشترى السم وهو الذي جاء لزيارتك، وحين تموت فجأة ويُكتشَف السيانيد في كأسك سيُشنق لانغتون... تلك كانت خطتك.

- لماذا أتيت؟ لماذا أتيت؟!

- لقد ذكرت لك السبب، ولكنّ لديّ سبباً آخر. أنا أحبك فاستمع إليّ يا صديقي. أنت رجل محكوم عليه بالموت وقد أصبحَت أيامك معدودة. لقد فقدتَ الفتاة التي أحببتَها، ولكن هناك شيئاً آخر لا يمكن أن يكون من صفاتك، وهو أن تكون قاتلاً. قل لي الآن يا صاحبي: هل أنت سعيد أم آسف لمجيئي؟

مرت فترة من الصمت قبل أن يتمكن هاريسون من تمالك

أعصابه، ثم بدا على وجهه لون جديد من الكبرياء وتألقَت في عينيه نظرة الرجل الذي استطاع أن يتغلب على الشرّ الكامن في أعماق نفسه، ثم مدّ يده لبوارو قائلاً: شكراً لله على مجيئك، وشكراً لله لأنك وصلت في الوقت المناسب.

* * *

الدليل المزدوج

- المهم أولاً وقبل كل شيء ألاّ يتسرب الخبر إلى الصحافة...

قالها السيد ماركوس هاردمان ربما للمرة الرابعة عشرة في نفس الجلسة. كان السيد ماركوس رجلاً نحيلاً قصير القامة يداه دقيقتان وصوته ناعم رقيق، وكان مشهوراً في عالَم الأزياء كمصمّم له صيته ومكانته، وكان غنياً ولكن ليس إلى الدرجة التي تضعه في مصافّ أصحاب الملايين، وكان ينفق الجانب الكبير من ماله في الحفلات جذب انتباه المجتمع. أما هوايته فكانت جمع كل شيء قديم ثمين فريد من نوعه، فكان يجمع العاديّات القديمة والمراوح العتيقة وقطع الجواهر النادرة، المهم أن تكون القطع التي تضمّها مجموعته وحيدة ليس لها نظير.

كنّا قد ذهبنا إلى مسكنه أنا وبوارو بناء على دعوة عاجلة، وعندما قابلنا كان قلقاً ضيّق الصدر. وكانت فكرة الاتصال برجال الشرطة بالنسبة له أمراً غير مرغوب فيه على الإطلاق، ولكن عدم إبلاغ الشرطة يعني في نفس الوقت ضياع مجموعة من الأحجار الكريمة التي اقتناها على مدار السنين الطويلة، ولهذا كان اتصاله ببوارو على أساس أن المخبر العظيم قادر

على أن يعينه في محنته.

قال السيد هاردمان بانفعال شديد: الياقوتات النادرة يا سيد بوارو والعقد الزمردي! هذا العقد الذي يُقال إن كاثرين دي مدسيس كانت تتزين به.

قال له بوارو مواسياً: أرجو أن تهدّئ من أعصابك وتقصّ عليّ كيف اختفت الجواهر.

- هذا ما أحاول أن أفعله. كنت أقيم حفلاً صغيراً في هذا المسكن بعد ظهر الأمس، ولم يكُن عدد الضيوف يزيد على ستة أفراد، وكنت قد أقمت قبل ذلك حفلاً أو حفلَين مماثلين خلال هذا الموسم وكانت الحفلات ناجحة تماماً... المهم، كنت أعرض على ضيوفي بعد ظهر الأمس مجموعة من الجواهر التي ترجع إلى القرون الوسطى، وكنت أضع تلك الجواهر في خزانة صغيرة داخل الحائط والجواهر مصفوفة على رفوف داخل الخزانة أمام خلفية مدهونة بلون القطيفة حتى تضفي جمالاً على المجموعة، وبعد ذلك عرضت على الضيوف مجموعة المراوح الموضوعة على الحائط، ثم توجهنا جميعاً لسماع الموسيقى. ولم أفطن إلى اختفاء الجواهر إلا بعد انصراف الزوّار.

ابتلع الرجل ريقه وهو يستعيد تلك الذكرى الأليمة ثم قال: كانت الخزانة مفتوحة، وربما أكون قد سهوت عن إغلاقها بإحكام فانتهز أحدهم الفرصة واستولى على كل المجموعة التي تضمّها من الجواهر.

ثم عاد الرجل يقول متوسلاً وكأنه يندب حظه: الياقوتات يا سيد بوارو والعقد الزمردي... المجموعة التي استغرق جمعها عمراً بأكمله! أنا على استعداد لأن أدفع أيّ مبلغ في سبيل استعادتها، ولكن يجب ألاّ يتسرب الخبر ويُذاع. لا شك أنك تقدّر هذا الموقف جيداً يا سيد بوارو. لقد كان جميع الزوار من الأصدقاء المخلصين وسوف تكون فضيحة كبيرة لو شاع الخبر.

- من كان آخر شخص من الضيوف يغادر هذه القاعة؟

- السيد جونسون. ربما تكون قد سمعت عنه، فهو مليونير قادم من جنوب إفريقيا، وقد استأجر مؤخَّراً قصر أبورتبري في باركلين. تخلّف السيد جونسون قليلاً عن المجموعة، أنا أذكر ذلك جيداً، ولكنني واثق من أنه لا يمكن أن يكون هو السارق.

- هل عاد أحد من ضيوفك إلى هذه القاعة متذرعاً بأي حجة؟

فقال السيد هاردمان: كنت أتوقع مثل هذا السؤال يا سيد بوارو. حسناً، لم يكُن واحداً بل ثلاثة: الكونتيسة روساكوف والسيد برنارد باركر والليدي رانكون.

- أرجو أن تروي لنا ما حدث بالتفصيل.

- الكونتيسة روساكوف سيدة روسية جميلة تنتمي إلى طبقة النبلاء القدامى في عهد ما قبل الثورة الروسية، وقد

جاءت إلى هذه البلاد مؤخَّراً. كانت قد حيّتني استعداداً للانصراف، ثم فوجئت بوجودها في هذه القاعة تنظر بإعجاب إلى مجموعة المراوح التي أقتنيها. لعلك توافقني يا سيد بوارو أني كلما فكرت في الأمر ازدادت شكوكي، ألا تتفق معي في هذا الرأي؟

- الموقف يدعو إلى الشك ولا ريب، ولكن أرجو أن تذكر التفصيلات بالنسبة لبقية الأشخاص.

- حسناً، جاء السيد باركر إلى هذه القاعة ليبحث عن صندوق يضمّ بعض التحف التي كنت حريصاً على أن أعرضها على الليدي رانكون.

- وماذا بشأن الليدي رانكون نفسها؟

- أستطيع أن أقول إن الليدي رانكون سيدة في منتصف العمر ذات شخصية جذابة وخلق قويم، وهي تكرّس معظم وقتها للأعمال الخيرية. وكان سبب عودتها إلى القاعة على حد قولها البحث عن حقيبة يدها التي نسيَتها في القاعة.

قال بوارو بعد لحظات من التفكير: حسناً يا سيدي، أمامنا الآن أربعة أشخاص تحوم حولهم الشبهات: الكونتيسة الروسية، والسيدة الإنكليزية العظيمة، والمليونير القادم من إفريقيا، ثم السيد برنارد باركر. ولكن مَن السيد باركر؟

فوجئ السيد هاردمان بالسؤال وبدت عليه الحيرة بعض الوقت ثم قال متلعثماً: إنه... شابّ، حسناً، في الواقع هو

شاب صغير. هذا كل ما في الأمر.

فقال بوارو باكتئاب: لقد استنتجتُ من كلامك الشيء الكثير، فما مهنة باركر هذا؟

- إنه شاب يعمل في وول ستريت، ولا أستطيع أن أحدد عمله على وجه الدقة ولكنه أقرب إلى السمسار.

- وكيف انضمّ إلى قائمة أصدقائك؟

- حسناً، لقد قام في عملية أو عمليتين بدور السمسار وحصل على عمولة منّي عندما اشتريت بعض المقتنيات.

سكت السيد هاردمان فقال بوارو: أرجوك أن تستمر يا سيدي.

نظر هاردمان إليه بإشفاق فلم يكُن يريد في الواقع أن يسترسل في مزيد من التفصيلات، ولكنه اضطُر إلى التسليم عندما استمرّ بوارو في صمته وقال: أنت ترى يا سيد بوارو... من المعروف للجميع أنني من المهتمّين بجمع الجواهر القديمة، وقد تفكّر بعض الأسر العريقة في أن تتخلص من بعض الجواهر التي تقتنيها للخلاص من أزمة مالية، ولا تستطيع مثل هذه الأسر أن تعرض ما لديها علناً في السوق، ولكن الأمر يختلف إذا كان المشتري شخصاً مثلي. وهنا يجيء دور باركر الذي يسوّي الأمور بين الطرفين، وبهذا يجنّب تلك الأسرة الحرج الذي يمكن أن تتعرض له في حالة عرض المجموعة على بيت لبيع الجواهر، فيحيطني باركر

علماً بوجود مثل هذه المجموعة. وعلى سبيل المثال أحضرَت الكونتيسة روساكوف معها مجموعة من جواهر عائلتها من روسيا وكانت تريد بيعها على وجه السرعة، وكان برنارد باركر هو الذي رتّب إجراءات إتمام هذه الصفقة.

قال بوارو بهدوء: إذن فهل تثق بالسيد باركر؟

- ليست لديّ أسباب تدفعني إلى عدم الثقة به.

فسأله بوارو: سيد هاردمان، أيّ واحد من الأشخاص الأربعة تتركز فيه شكوكك؟

- يا له من سؤال محرج يا سيد بوارو! جميعهم أصدقائي كما قلت لك. أنا أشك في بعضهم أو فيهم جميعاً إن شئتَ.

- أنا لا أوافقك على هذا الرأي، فأنت تشتبه في واحد من هؤلاء الأربعة. ليست الكونتيسة روساكوف، كما أنه ليس السيد باركر، فهو إما الليدي رانكون أو السيد جونسون.

- أنت تضعني في مأزق يا سيد بوارو. أنا أتمنّى بشدة ألاّ تحدث فضيحة؛ فالليدي رانكون تنتمي إلى واحدة من أعرق الأسر الإنكليزية، ولكن هناك لسوء الحظ حقيقة معروفة وهي أن عمتها الليدي كارولين مريضة بداء السرقة، وقد تعودَت خادمتها أن تعيد لأصدقائها ما تسرقه من ملاعق للشاي أو غير ذلك من الأشياء.

- إذن فالليدي رانكون تمتّ بصلة القرابة لسيدة مصابة

بمرض نفسي؟ هذه حقيقة مهمة. هل تسمح لي الآن بمعاينة الخزانة؟

عندما قادنا السيد هاردمان إلى الخزانة ورأينا الرفوف الخالية من الجواهر قال بوارو هامساً: لم يعُد باب الخزانة منذ فتحه يُغلَق بإحكام. أنا أتساءل بدهشة عن السبب! آه، ماذا نجد داخل الخزانة؟ هذا قفاز، ولا شك أنه سقط من يد السارق وهو يدسّ يده داخل الخزانة، وهو قفاز رجل.

عرض بوارو القفاز على السيد هاردمان الذي قال: ليس هذا قفازي.

وصاح بوارو بانفعال: هنا شيء آخَر!

وأخرج بوارو من داخل الخزانة علبة سجائر، فصاح هاردمان: هذه علبة لفائفي!

وقال بوارو: ليست علبتك بكل تأكيد يا سيدي، فالحروف الأولى المنقوشة عليها تشير إلى ذلك.

أشار بوارو إلى الحرفين المنقوشَين على العلبة ثم أمسكها السيد هاردمان ليفحصها وقال: الحق معك؛ فهي تشبه علبتي تماماً ولكن الحروف المنقوشة عليها مختلفة. عليها الحرفان «BP». يا إلهي، علبة باركر!

قال بوارو بهدوء: هكذا يبدو الأمر للوهلة الأولى. يا له من شابّ مهمل! خاصّة إذا اتضح أن القفاز هو قفازه أيضاً،

فهذا يعني أن الدليل ضده مزدوج.

وتمتم السيد هاردمان بدهشة: برنارد باركر. الأمور بدأت تتضح الآن. حسناً يا سيد بوارو، أنا أترك الأمر بين يديك لتستعيد لي الجواهر، ولك أن تُخطر رجال الشرطة إذا رأيت أن لديك الدليل القاطع على صحّة الاتهام الموجَّه للجاني.

* * *

عندما غادرنا المنزل قال لي بوارو: هكذا ترى يا صديقي أن السيد هاردمان يطبّق قانونين: الأول يطبَّق على أصحاب الألقاب والثاني يطبَّق على عامة الناس. ونظراً لأنني لم أحصل على لقب نبيل فأنا أقف في صفّ العامة وأشعر بالتعاطف مع ذلك الشاب. لقد كانت المسألة كلها غريبة منذ البداية، يشك السيد هاردمان في الليدي رانكون في حين تتجه شكوكي إلى الكونتيسة وجونسون، في حين أن السيد باركر الغامض هو الرجل الذي نبحث عنه.

- لماذا تتجه شكوكك نحو الشخصَين الآخرين؟

- يا إلهي! من السهولة جداً أن تدّعي أنك روسي أو أنك مليونير قادم من جنوب إفريقيا، فمَن ذا الذي سيعارضك؟ ولكنني ألاحظ أننا نمر الآن بشارع بيري، وهي فرصة لمقابلة ذلك الشابّ المهمل. لنحاول على حد تعبيرك يا هيستنغز أن نطرق الحديد وهو ساخن.

كان السيد برنارد باركر موجوداً في المنزل، وبادره

بوارو بقوله: صباح الخير يا سيدي. أنا قادم من زيارة للسيد هاردمان، وقد سرق أحد ضيوف الحفل بالأمس كلّ مجموعة الجواهر التي يمتلكها السيد هاردمان. اسمح لي أن أسألك: هل هذا القفاز ملكك؟

لم تكُن عملية التفكير العقلي لدى السيد باركر سريعة لأنه ظلّ يتأمل القفاز بعض الوقت قبل أن يجيب بقوله: أين عثرت عليه؟

- هل هو قفازك يا سيدي؟

استقر رأي السيد باركر أخيراً وقال: لا، ليس قفازي.

- وعلبة اللفائف هذه أليست علبتك؟

- بكل تأكيد لا يا سيدي. هذه العلبة من البلاتين وعلبتي مصنوعة من الفضة.

- حسناً جداً يا سيدي، سوف أضع الأمر بين يدَي الشرطة ليتولوا الأمر بأنفسهم.

فصاح السيد باركر منفعلاً: لو أنني كنت في مكانك ما فعلت ذلك يا سيدي؛ رجال الشرطة وحوش! انتظر قليلاً فسوف أذهب وأقابل السيد هاردمان. انتظر، انتظر لحظة واحدة يا سيدي.

ولكن بوارو تركه وانصرفنا لا نلوي على شيء، ثم قال لي بوارو بعد خروجنا وهو يضحك بسرور: لقد أعطيناه شيئاً

ليفكر فيه، أليس كذلك؟ في الغد سوف نراقب ماذا تكون النتيجة.

* * *

لكننا لم نكن في حاجة إلى الانتظار إلى الغد حتى نتذكر قضية هاردمان، فقد فوجئنا دون سابق إنذار بالباب يُفتح وتندفع منه الكونتيسة الروسية كالعاصفة الهوجاء المزمجرة وقالت بحدة: هل أنت السيد بوارو؟ ما هذا الذي فعلته؟ أتتهم ذلك الفتى المسكين؟! هذا تشهير، فضيحة علنية. أنا أعرف ذلك الفتى وأعرف أنه كالحمَل الوديع لا يمكن أن يسرق أبداً. لقد أدّى لي خدمة وسوف أقف إلى جانبه ولن أسمح لأحد بأن يذبحه وأنا أقف موقف المتفرج.

قال بوارو وهو يعرض لها علبة اللفائف: أجيبي عن سؤالي يا سيدتي: هل هذه علبة لفائفه؟

سكتت الكونتيسة برهة حتى تفرغ من فحص العلبة ثم قالت: نعم، هذه علبته بالفعل، أنا أعرفها جيداً. ما شأن العلبة بالموضوع؟ هل عثرت عليها في الغرفة؟ لقد كنّا جميعاً في الغرفة وربما تكون قد سقطت منه. تباً لكم يا رجال الشرطة! أنتم أسوأ من رجال الحرس الأحمر.

- وما رأيك في هذا القفاز؟ هل تعرفين صاحبه؟

- كيف لي أن أعرف؟ القفازات كلها متشابهة. ولا تحاول أن تقنعني بالتنحّي عن الدفاع عنه. لا بد أن تترك هذا الفتى

وشأنه، يجب أن تبعده عن الشكوك وتتركه وشأنه. سوف أبيع جواهري وأعطيك من المال ما تشاء.

قال بوارو معترضاً: ولكن يا سيدتي...

فقاطعته الكونتيسة قائلة: هل اتفقنا إذن؟

- ماذا لو كان...

- لا، لا، لا تجادلني. يا للفتى التعس! لقد جاءني والدموع في عينيه، وقلت له: "سوف أنقذك، سوف أقابل ذلك الرجل، ذلك الغول المتوحش. اترك الأمر لفيرا". هل أستطيع أن أقول الآن إن المشكلة قد سُوّيت؟ سأنصرف.

وكما دخلت الكونتيسة بضجيجها خرجت من الغرفة باندفاع تاركة وراءها رائحة العطر النفّاذ الذي تستخدمه، فقلت لبوارو: يا لها من امرأة ويا لذلك الفراء التي ترتديه!

- آه، أجل، امرأة رائعة حقاً. هل تستطيع كونتيسة مزيَّفة أن تقتني مثل هذا الفراء الثمين؟ إذن مزحتي الصغيرة يا هيستنغز أنني... لا، إنها روسية بحق على ما أعتقد. حسناً جداً، إذن فقد ذهب السيد برنارد إليها وقصّ عليها ما حدث!

فقلت لبوارو وأنا أحاول أن أستشف دخيلة نفسه: علبة اللفائف تخصّ ذلك الفتى، وسوف يدهشني ألاّ يكون القفاز خاصّاً به أيضاً.

ابتسم بوارو ابتسامة عريضة وأخرج من جيبه فردة أخرى

من القفاز ووضعها بجانب الأولى، ولم يكُن هناك أدنى شك في أنهما فردتا قفاز واحد فسألتُه: أين عثرت على الفردة الثانية يا بوارو؟

– لقد كانت ملقاة فوق المنضدة في صالة المسكن بشارع بيري. هذا الشابّ الصغير مهمل بحق، هذا السيد باركر... حسناً يا صديقي، يجب أن ننتهي من هذه القضية، وحتى أستكمل شكليات القضية سوف أقوم بزيارة لبارك لين.

* * *

غَنِيّ عن البيان أنني رافقت بوارو في زيارته، وكان جونسون في الخارج ساعة وصولنا لكن سكرتيره الخاصّ استقبلنا وعلمنا منه أن جونسون وصل منذ فترة قريبة من جنوب إفريقيا وأنه لم يسبق له زيارة إنكلترا قبل ذلك، فقال بوارو ليستحثّ السكرتير على الكلام: إنه من هواة جمع الأحجار الكريمة، أليس كذلك؟

ضحك السكرتير وهو يجيب بقوله: ربما كان التعبير الأدق أنه من هواة التنقيب عن الذهب.

* * *

خرج بوارو من تلك الزيارة شارد اللب ميّالاً للصمت، وفوجئت به في ساعة متأخرة من المساء يدرس باهتمام شديد كتاباً في تعلم مبادئ قواعد اللغة الروسية فصحت بدهشة: يا إلهي! ما هذا الذي تفعله يا بوارو؟ هل تتعلم الروسية حتى

تستطيع أن تتفاهم مع الكونتيسة بلغتها الأصلية؟

- بالتأكيد هي لن تفهم لغتي الإنكليزية يا صديقي.

- ولكنك تعلم على وجه اليقين يا بوارو أن النبلاء الروس يتحدثون الفرنسية.

فقال بوارو ساخراً: أنت منجم للمعلومات يا هيستنغز! سوف أتوقف عن فك رموز الحروف الأبجدية للغة الروسية.

ألقى بوارو الكتاب على الأرض بطريقة مسرحية، ولم تعجبني منه تلك الحركة على الإطلاق. وكان في عينيه وميض أعرفه من تجاربي السابقة، ذلك الوميض الذي يدلّ على أن بوارو مسرور من نفسه فقلت له: ربما تكون شكوكك قد ذهبت إلى أن السيدة ليست روسية حقاً وتريد أن تضع تلك الشكوك موضع الاختبار.

- آه، لا، بل هي روسية بالفعل.

- حسناً، ما الفكرة إذن؟

قال بوارو وهو يبتسم ابتسامة عريضة: إذا أردت أن تتميز بحق وتكشف أسرار هذه القضية فأنا أوصيك بأن تقرأ كتاب «الخطوات الأولى لتعلّم اللغة الروسية»، فسوف يفيدك ذلك فائدة كبيرة.

أتبع بوارو تلك الكلمات بضحكة عالية ولم يقُل شيئاً، في

حين انحنيت على الأرض والتقطت الكتاب وأخذت أقلّب صفحاته في فضول، ولكنني وجدته كالطلاسم ولم أرَ أيّ ارتباط بين ملاحظة بوارو وذلك الكتاب.

* * *

لم يحمل لنا صباح اليوم التالي أيّ معلومات تفيدنا في القضية، ومع ذلك لم يكُن بوارو يشعر بأدنى قلق، وأعلن لي ساعة الإفطار عن نيّته في زيارة السيد هاردمان. كان الرجل الضئيل موجوداً في البيت، وكانت أعصابه أهدأ من اليوم السابق فسأل الرجل باهتمام: حسناً يا سيد بوارو، هل من أنباء جديدة؟

سلمه بوارو قصاصة من الورق وهو يقول: هذا هو اسم الشخص الذي سرق الجواهر. هل تحب يا سيدي أن أعهد بالأمر إلى رجال الشرطة أم أقوم باسترداد الجواهر دون تدخّل الشرطة في الأمر؟

تأمّل السيد هاردمان الورقة برهة ولم يفتح فمه بكلمة، وعندما استعاد قدرته على الكلام قال: هذا شيء بالغ الغرابة! أنا أفضّل أن تتمّ تسوية الموضوع دون أيّ فضيحة يا سيد بوارو وأعطيك تفويضاً كاملاً لكي تعالج الموضوع بأقصى درجات الحذر والكتمان.

* * *

كانت خطوتنا التالية أن نستقل إحدى سيارات الأجرة،

وطلب بوارو من السائق أن يتوجه إلى كارلتون حيث سأل عن الكونتيسة روساكوف، ولم نجد عناء في الوصول إلى مقرها، وخفّت الكونتيسة للقائنا مرحّبة وقالت بصخب: سيد بوارو، هل نجحت في مهمتك؟ هل استطعت أن تبرّئ الفتى المسكين؟

قال بوارو وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى: سيدتي الكونتيسة، صديقك السيد باركر بريء تماماً من التهمة وليس معرَّضاً للاعتقال.

- آه، يا لك من رجل حاد الذكاء! مدهش. وقد استطعت أن تحلّ المشكلة بسرعة أيضاً!

قال بوارو بهدوء: وقد وعدت السيد هاردمان في نفس الوقت أن أعيد له الجواهر المسروقة اليوم.

- حقا؟!

- هكذا يا سيدتي، وسوف أكون مديناً لك بخالص الشكر لو تفضّلتِ بوضع الجواهر بين يديّ الآن دون إبطاء. أنا آسف لاستعجالك ولكن السبب أنني استأجرت سيارة أجرة تنتظرني أمام الباب في حالة ما إذا اضطُررت للذهاب إلى اسكتلنديارد، ولعلك لا تعلمين يا سيدتي أننا معشر البلجيكيين نحب الاقتصاد.

أشعلت الكونتيسة لفافة تبغ وجلست برهة في صمت تامّ وهي تنفث دخانها بعصبية وتحدّق إلى وجه بوارو، ثم

انفجرت ضاحكة دون مقدمات ووقفت واتجهت إلى الخزانة وفتحت درجاً أخرجت منه حقيبة صغيرة مصنوعة من الحرير الأسود ألقتها بين يدَي بوارو، وكان صوتها عندما بدأت الحديث هادئاً وهي تقول: نحن الروس على العكس نميل إلى التبذير، وحتى يستطيع الإنسان أن يمارس تلك الهواية فلا بد له من تدبير بعض النقود. لستَ في حاجة إلى أن تفتح الحقيبة فهي تضمّ كل الجواهر.

نهض بوارو وهو يقول: أهنئكِ يا سيدتي الكونتيسة على ذكائك وسرعة بديهتك.

قالت الكونتيسة ضاحكة: وهل كان باستطاعتي أن أتصرف تصرفاً آخَر وأنا أعلم أن سيارة الأجرة بانتظارك؟

- أنت ساحرة يا سيدتي الكونتيسة. هل تبقين وقتاً طويلاً في لندن؟

- يؤسفني أن يكون جوابي بالنفي، والسبب يرجع لك.

- أنا شديد الأسف.

- ربما التقينا في مكان آخر.

- أرجو ذلك.

وأردفت الكونتيسة تقول ضاحكة: في الواقع آمل ألاّ ألتقي بك مرة أخرى، وربما كان حقك أن أصرح بأنك أول

رجل أدخل الرعب إلى قلبي. وداعاً يا سيد بوارو.

- وداعاً يا سيدتي الكونتيسة، آه، معذرة، نسيت أن أعيد لك علبة لفائفك.

وانحنى بوارو انحناءة بسيطة وهو يمدّ يده بعلبة اللفائف، وتقبلت الكونتيسة العلبة بهدوء ولم يبدُ عليها أيّ انفعال فيما عدا أنها رفعت أحد حاجبيها وتمتمت قائلة: شكراً لك.

* * *

بينما كنّا نهبط الدرَج قال بوارو: يا لها من امرأة! يا إلهي، يا لها من امرأة! لم تحاول أن تجادل ولم تصدر منها كلمة اعتراض واحدة أو أيّ محاولة للمراوغة. لقد ألقت عليّ نظرة واحدة واستطاعت أن تتبيّن حقيقة الموقف بسرعة. أحبّ أن أقول لك يا هيستنغز أن السيدة التي تتقبل الهزيمة بهذه البساطة، بابتسامة الإنسان غير المكترث مثل هذه السيدة، على استعداد أن تسير إلى نهاية الشوط، وهي بالغة الخطورة ولديها أعصاب من الصلب.

سألت بوارو بفضول: منذ متى اتجهت شكوكك نحو الكونتيسة؟

- يا صديقي العزيز، كانت البداية مع القفاز وعلبة اللفائف... تستطيع أن تقول إنه الدليل المزدوج. لقد سبّب لي ذلك حيرة بالغة، فقد كان من المعقول أن يسقط القفاز بطريق الإهمال من برنارد باركر، ولكن أن تسقط منه كذلك

علبة اللفائف فهذا أمر بعيد الاحتمال مهما كانت درجة إهماله. وكذلك الأمر بالنسبة لمحاولة إلصاق التهمة بالشاب، كان أحد الدليلَين كافياً للفت الأنظار إلى باركر، القفاز أو علبة اللفائف، ولهذا استنتجت أن الدليلَين لا يمتّان بصلة إلى باركر. وتصورتُ في البداية أن علبة اللفائف هي التي تخصّه وأن القفاز ليس قفازه، ولكنني عندما تأكدت أن فردة القفاز تخصّه أدركت على الفور ما يعنيه الدليل الآخر، وتساءلت لمن تكون علبة اللفائف إذن؟ من الواضح أنها ليست خاصّة بالليدي رانكون لأن الحروف الأولى لا تمتّ لاسمها بصلة. هل يكون السيد جونسون؟ قد يصح ذلك إذا كان السيد جونسون ينتحل اسماً غير اسمه الحقيقي، وقد تأكدتُ من زيارتي لسكرتيره الخاصّ أن موقف السيد جونسون سليم وأنه بعيد عن الشبهات، وليس في ماضي الرجل ما يشين.

ثم تألّقت عينا بوارو بذلك البريق المألوف وهو يقول مشيراً بإصبعه: هنا فكرت في الكونتيسة. وما كان أسهل عليها من التقاط فردة من قفاز باركر من الصالة ثم إلقائها داخل الخزانة، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أنها لم تقصد أن تسقط علبة اللفائف داخل الخزانة.

فقلت له بدهشة: ولكن إذا كانت علبة اللفائف تخصّها فلماذا كان الحرفان المنقوشان على العلبة هما «BP»؟ المعروف أن الحروف الأولى من اسمها هي «VR».

ابتسم بوارو ابتسامة عريضة وقال: تماماً يا صديقي

العزيز، ولكن في الأبجدية الروسية نجد أن الحرفين «BP» يقابلهما «VR».

فقلت له بضيق: حسناً، وكيف كنت تتوقع منّي أن أخمن ذلك وأنا لا أعرف حرفاً من الروسية؟

- ولا أنا أيضاً يا هيستنغز، لهذا اشتريت ذلك الكتاب ولفتّ نظرك إليه.

ثم تنهد بوارو وهو يقول: تلك السيدة جديرة بالدراسة. لديّ شعور يا صديقي، شعور غريب، بأنني سوف ألتقي بها مرة أخرى. ولكن أين؟ هذا ما أفكر فيه.

* * *

الوصية المفقودة

كانت المشكلة التي عرضتها الآنسة فيوليت مارشي تختلف تماماً عن المشكلات الروتينية المألوفة التي يعالجها صديقها بوارو، وكان بوارو قد تلقّى من هذه الآنسة رسالة قصيرة تتّسم عباراتها بالجدية والحزم تطلب منه فيها أن يحدّد موعداً لمقابلتها، فردّ بوارو عليها محدداً الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي موعداً للمقابلة.

جاءت الفتاة في الموعد المحدد، كانت طويلة القامة جميلة ترتدي ثوباً بسيطاً، ولكنه أنيق، وتنم حركاتها وطريقتها في التعبير عن قوة الإرادة والثقة بالنفس. قالت الفتاة وهي تجلس على المقعد الذي قدمه إليها بوارو: القضية التي جئت إليك من أجلها لها طابع خاص يا سيد بوارو، ولكنني أظن أنه يحسن بي أن أبدأ من البداية.

- حبذا لو فعلتِ.

- أنا يتيمة، وكان أبي أحد أخوين ينتميان إلى أسرة من صغار المزارعين في ديفونشاير، وكانت مزرعتهما صغيرة قليلة العطاء، فهاجر الأخ الأكبر أندريو إلى أستراليا حيث استطاع أن يجمع ثروة طائلة من مضارباته الناجحة في الأراضي، أما الأخ الأصغر روجر، وهو أبي، فلم يكُن يميل إلى الزراعة

والحياة الريفية، واستطاع أن يلقّن نفسه بعض العلوم وأن يعمل موظّفاً في إحدى الشركات، ثم تزوج والدتي، وهي ابنة فنان متوسط الحال.

ثم قالت وقد بدت رنّة الحزن في صوتها: ومات أبي وأنا في السادسة من عمري، ولحقت به أمي وأنا في الرابعة عشرة، فكفلني عمّي الذي كان قد عاد مؤخّراً من أستراليا واشترى قصراً قديماً في مسقط رأسه معروفاً باسم قصر كرابتري، وطلب مني أن أقيم معه فيه، وعاملني كما لو كنت ابنته، وعلى الرغم من أنه دمث الخلق فقد كان شديد التعصب في آرائه ضد تعليم المرأة، ربما لأن حظه هو نفسه من التعليم كان ضئيلاً، فقد كان من رأيه أن تعليم الفتاة يجب أن يقتصر على التدبير المنزلي والحياكة وطهي الطعام والعناية بالدواجن والماشية.

ثم صمتت برهة وقد لاحت من عينيها نظرة تمرد وعناد ثم استطردت قائلة: وقد أراد أن ينشّئني وفقاً لهذا الرأي، ولكنني تمردت وأعلنت العصيان، فقد كنت أعلم أن لي عقلاً ذكياً، وأنني لا أميل إلى الأعمال المنزلية، فشجر الخلاف بيني وبين عمي، واتسم الحوار بيننا بالعناد والمرارة، وكان كل منّا يتصف بالصلابة وقوة الإرادة، وكان من حسن حظي أنني حصلت على منحة دراسية. اشتدّت أزمة العلاقة بيني وبين عمي عندما قررتُ السفر إلى لندن لمواصلة تعليمي. كنت قد ورثت من أمي قليلاً من المال، فقررت أن أستثمر المواهب التي منحني الله إياها، وقام بيني وبين عمي حوار طويل أخير،

فقال لي صراحة إنه ليس له من الأهل والأقارب سواي، وإنه كان في نيّته أن يورثني كل ثروته الطائلة، ولكني إذا أصررت على آرائي السخيفة فإنه يحسن بي ألاّ أنتظر منه شيئاً، فأجبته في أدب، ولكن في حزم، بأنني سأظل على حبي له، ولكنني مصرّة على المضيّ في الطريق الذي رسمته لنفسي.

ونظرت إلى بوارو ثم استطردت قائلة: وافترقنا، وقد كانت آخر عبارة قالها لي: "أنت تتوهمين بأن لك عقلاً ذكياً، ولكنني، أنا الذي لم أتلقَّ شيئاً من العلم، على استعداد لأن أتحدى ذكاءك، وستُظهِر الأيام أينا الأذكى.". حدث ذلك منذ تسعة أعوام، وخلال تلك الأعوام التسعة كنت أقضي معه عطلة نهاية الأسبوع في بعض الأحيان، وكانت العلاقة بيننا ودّية للغاية، رغم أنه لم يتزحزح أحد منا عن وجهة نظره قيد أنملة. لم يكُن يعقّب بكلمة واحدة على النجاح الذي أحرزته في التعليم أو على الدرجات العلمية التي حصلت عليها، ثم حدث أن ساءت صحتُه في السنوات الثلاث الأخيرة، إلى أن مات في الشهر الماضي. والآن سأوضح لك الغرض من زيارتي هذه. لقد ترك عمي وصية غريبة، تنصّ على أن يصبح قصر كرابتري بكل محتوياته ملكاً لي بعد عام من وفاته، بشرط (كما قال حرفياً في وصيته): "أن تبرهن ابنة أخي خلال هذا العام على ذكائها، فإذا ثبت بعد هذه الفترة أنني أذكى منها فالقصر وما فيه وكل ثروتي تؤول إلى المؤسسات الخيرية".

- لا شك أن هذه الوصية كانت صدمة لك يا آنسة، خاصة وأنك قريبته الوحيدة.

- أنا لا أنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية، لقد كان عمي أميناً وصريحاً معي، وقد حذّرني، ولكنني اخترت طريقي ولم أنزل على إرادته، فأصبح من حقه أن يترك أمواله لمن يشاء.

- وهذه الوصية، هل كتبها أحد المحامين؟

- لا، لقد كُتبت على استمارة مطبوعة وشهد عليها بستاني القصر وزوجته.

- ربما كانت هناك وسيلة لإلغاء مثل هذه الوصية.

- أنا لا أفكر في ذلك، ولن أحاول أن أفعله.

- إذن لعلكِ تعتبرين هذه الوصية تحدياً لكِ من عمك، أليس كذلك؟

- تماماً، أنا أنظر إليها على هذا الاعتبار.

- وهذا التحدي معناه أنّ عمك قد أخفى في قصره العتيق مبلغاً كبيراً من المال، أو ربما وصية أخرى، ومنحك عاماً تختبرين خلاله مواهبك وذكاءك للعثور على الشيء الذي أخفاه.

- تماماً يا سيدي، ومجيئي إليك هو اعتراف مني بأنكَ أوفر مني موهبة وأشدّ ذكاء.

- شكراً لك يا آنسة. سوف أضع كل ذكائي ومواهبي في خدمتك، ولكن ألم تقومي من ناحيتك بأيّ بحث؟

- بلى، قمت ببحث سريع، ولكنني أعرف عن قدرات عمّي ما يجعلني أعتقد بأن الأمر لن يكون يسيراً.

- هل معكِ الوصية أو صورة منها؟

فوضعَت الفتاة الوصية أمامه على المكتب، وجرى بوارو ببصره بين سطورها وقال: لقد كُتبت هذه الوصية في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٥ آذار (مارس) أي منذ ثلاث سنوات. تحديد الوقت بهذه الدقة يدعو إلى الاعتقاد بأن الشيء الذي يجب أن نبحث عنه هو وصية أخرى، وإذا كانت الوصية الأخرى قد كُتبت بعد هذه الوصية، ولو بنصف الساعة، فإنها تُلغي هذه الوصية. الواقع أنكِ قدمت لي مشكلة غاية في الطرافة يا آنسة، ويسرّني أن أحلها وأنا واثق من أن عمّك مهما بلغ من الدهاء والمهارة فخلايا مخّه لن تكون أفضل بحال من خلايا مخ هيركيول بوارو، ولعلّ من حسن الحظ أنه ليس لدي ما يشغلني في الوقت الحاضر، ولذلك سأسافر الليلة مع صديقي هيستنغز إلى قصر كرابتري. هل البستاني وزوجته مازالا هناك؟

- نعم، والبستاني يُدعى بيكر.

* * *

وصلنا إلى قصر كرابتري في ساعة متأخرة من الليل، وكان بيكر وزوجته قد تلقّيا برقية من الآنسة فيوليت مارشي عن الغرض من زيارتنا، فأحسنا استقبالنا وقدّما لنا عشاءً شهيّاً،

وفي الصباح انتقلنا بعد الإفطار إلى مكتب أندريو مارشي عم الفتاة، فوجدنا في أحد أركانه مائدة كبيرة عليها أكوام من الأوراق، فقال بوارو وهو يشعل إحدى سجائره الصغيرة: يجب أن نضع خطة للعمل. لقد تفقّدتُ غرف القصر، ولكنني واثق من أننا لن نجد ضالّتنا إلا في هذه الغرفة، وأول ما ينبغي عمله هو أن نفحص كل هذه الأوراق بعناية تامّة، ليس لأنني أتوقع أن أجد الوصية بينها، وإنما لأننا سنجد في إحدى الأوراق البرئية المظهر ما يرشدنا إلى مكان الوصية، ولكننا يجب أن نحصل أولاً على بعض المعلومات. أرجوك أن تدقّ الجرس يا هيستنغز.

فدقّ هيستنغز الجرس في حين راح بوارو يُجيل الطرف حوله، ثم لم يلبث أن قال: لقد كان السيد مارش رجلاً دقيقاً محبّاً للنظام، فلقد حزم كل أوراقه بعناية. ثم انظر إلى مفاتيح الأدراج، وكيف شدّ كلاً منها إلى بطاقة عاجيّة عليها رقم الدُرج. كل شيء يدل...

وكفّ عن الكلام فجأة، وقد تعلّقت عيناه بمفتاح الدُرج الأوسط بالمنضدة. كان ذلك المفتاح على خلاف سائر المفاتيح، كان مشدوداً إلى غلاف قذر كُتب عليه بخط رديء يختلف عن الخط الدقيق الجميل المكتوب على البطاقات العاجية الأخرى هذه الكلمات: «مفتاح الدرج الأوسط»، فقال بوارو وهو يتناول المفتاح: هنا نغمة نشاز، فهذا ليس خط صاحب القصر. تُرى من كتب هذه الكلمات إذن؟ الآنسة فيوليت؟ ولكنها فتاة مثقفة تجيد الكتابة وتحب

النظام والنظافة.

وفي تلك اللحظة دخل البستاني فقال له بوارو: هلاّ دعوت زوجتك يا سيد بيكر؟ فأنا أريد أن ألقي عليكما بضعة أسئلة.

فخرج بيكر، ثم عاد بعد دقائق ومعه زوجته وهي تجفف يديها في مئزرها، وبإيجاز أوضح بوارو للبستاني وزوجته الغرض من مهمته، فلم يُخفيا حبهما للآنسة فيوليت وتعاطفهما معها، وقالت الزوجة: نحن لا نريد أن تُحرَم الآنسة فيوليت من حقوقها. حرام أن تذهب الثروة كلها للملاجئ والمستشفيات.

ثم أخذ بوارو في استجوابهما، فقالا إنهما يذكران جيداً أنهما وقّعا على الوصية كشاهدَين، وأن السيد بيكر كان قد ذهب، قبل ذلك، إلى المدينة المجاورة لشراء وصيّتين مطبوعتين.

- استمارتَين؟

- نعم يا سيدي، وأظن أن ذلك كان على سبيل الاحتياط حتى إذا تلفت واحدة أمكن استعمال الأخرى، وقد وقّعنا على إحداهما.

- كم كان الوقت حينئذ؟

فراح بيكر يحك رأسه، وكانت زوجته أسرع منه فقالت: كان ذلك في موعد تقديم الكاكاو للسيد مارشي، أي نحو

الساعة الحادية عشرة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد نحو الساعة دعانا السيد مارشي مرة أخرى وقال لنا: "لقد أخطأت في كتابة الوصية الأولى، وقد مزّقتها، فهل لكما أن توقّعا على هذه الوصية الجديدة؟"، فأطعنا، ثم منح السيد كلاً منا مبلغاً من المال.

- وماذا فعل السيد مارشي بعد أن وقّعتما على الوصية الثانية؟

- ذهب إلى القرية لسداد مطلوبات بعض التجار.

وشعر بوارو بأنه يسير في طريق مسدودة، فاتجه بأسئلته إلى وجهة جديدة فقال وهو يعرض عليهما مفتاح الدرج الأوسط للمائدة: هل هذا خط السيد مارشي؟

فبدا التردد واضحاً على بيكر وقال بعد صمت طويل: لا يا سيدي.

- هل قام أحد باستئجار هذا القصر من صاحبه؟ هل أقام غرباء في هذا القصر خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة؟

- لا يا سيدي.

- هل استقبلتم ضيوفاً؟

- لا يا سيدي، فيما عدا الآنسة فيوليت.

- ألم يدخل هذه الغرفة غرباء؟

- نعم يا سيدي، لم يدخل غرباء.

وهنا قالت زوجة بيكر تذكره: هل نسيت العمّال يا جيم؟

فهتف بوارو على الفور: أيّ عمّال؟

فقالت المرأة إن صاحب القصر استخدم بعض العمال منذ نحو عامين ونصف العام لإجراء بعض الإصلاحات، ولكنها لا تذكر نوع تلك الإصلاحات، ثم أضافت أن العمال قضوا بعض الوقت في قاعة المكتب، ولكنها لا تعرف ماذا فعلوا في هذه القاعة لأن السيد مارشي منعهم من دخولها في أثناء العمل.

وقال بيكر ردّاً على أسئلة بوارو إنه لا يذكر اسم شركة المقاولات التي أرسلَت العمال، ولكنه يعلم أن مقرها في مدينة بلايموث.

وما إن انصرف بيكر وزوجته حتى فرك بوارو كفيه بارتياح وقال لي: نحن نتقدم بخطى حثيثة يا هيستنغز. من المحقَّق أن الرجل كتب وصية ثانية ثم أحضر العمال من بلايموث لينشئوا مخبأ يخفي فيه الوصية. دعنا لا نضيع الوقت في فحص الجدران والسقوف بحثاً عن المخبأ وهلمّ بنا إلى بلايموث.

وفي بلايموث استطعنا العثور على شركة المقاولات والاستدلال على العاملَين الذين أرسلتهما الشركة إلى قصر كرابتري. وقد قال العاملان إنهما أجريا بعض الترميمات

في القصر وانتزعا حجراً فوق مدفأة غرفة المكتب وصنعا مخبأً سرّياً يحجبه حجر من نوع الأحجار المستخدمة في بناء الجدار بحيث لا يستطيع الناظر أن يتبين وجود المخبأ، ولكن إذا ضغط الإنسان على الحجر الذي يقع على يمين المخبأ فإن الحجر الذي يغلق المخبأ يتحرك ويكشف عن المخبأ.

وبعد أن وقفنا على هذه المعلومات عدنا إلى قصر كرابتري ونحن نكاد نطير فرحاً، ودخلنا قاعة المكتب وأغلقنا بابها، وقام بوارو بالضغط على الأحجار فوق المدفأة إلى أن تحرك أحدها وكشف عن المخبأ، وبسرعة وضع بوارو يده في المخبأ، ولكن سرعان ما انقلبت سحنته وظهرت على وجهه دلائل خيبة الأمل، ذلك لأنه وجد المخبأ خاوياً إلا من بقايا أوراق محترقة، فصاح بغضب: يا إلهي! لقد سبقَنا بعضهم إلى هنا.

ثم فحصنا تلك البقايا، وكان من الواضح أنها بقايا أوراق من نوع أوراق الوصايا، وكان جزء من إمضاء السيد مارشي ظاهراً فيها.

- ما معنى هذا؟! أنا لا أفهم. من الذي أحرق الوصية؟ ولماذا؟

فسألتُه: هل ترتاب في بيكر وزوجته؟

- لماذا؟ ليست لهما أية مصلحة في هذه الوصية أو تلك، بل على العكس، فمن مصلحتها أن يؤول القصر إلى الآنسة فيوليت لكي يبقيا في خدمتها.

- ألا يُحتمل أن يكون السيد مارشي قد عدل عن رأيه فأحرق الوصية بنفسه؟

- هذا أمر محتمل.

ثم أضاف بعد قليل: لا حيلة لنا في الأمر يا هيستنغز. لقد فعلنا كل ما نستطيع وقبلنا تحدي السيد مارشي، ولكنه انتصر.

ثم انطلقنا على الفور إلى محطة السكة الحديدية، فوصلنا إليها في الوقت المناسب للحاق بالقطار المسافر إلى لندن، وكان بوارو حزيناً مهموماً، أما أنا فكنتُ متعَباً، وقد غلبني النعاس فاستُغرقت في النوم، وعندما وصل القطار إلى محطة تونتون سمعت بوارو يصيح فجأة: أسرع يا هيستنغز. استيقظ واقفز من القطار.

فنهضتُ مذعوراً ووثبت من المركبة وهي تتحرك، ونظرت في ذهول إلى بوارو ثم إلى القطار الذي انطلق مسرعاً بقبعاتنا وحقائبنا، وكنتُ أتميز غيظاً ولكن بوارو لم يعبأ وراح يصيح: ما أشدّ غبائي! ليس لي أن أفخر بعد الآن بخلاياي الرمادية.

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- يجب أن نعود فوراً إلى قصر كرابتري.

ثم عدنا بأحد القطارات البطيئة فوصلنا إلى القصر قُبَيل

الفجر، ودُهش بيكر وزوجه حين أبصرانا، ولكن بوارو مضى مسرعاً إلى قاعة المكتب فتناول مفتاح الدرج الأوسط وانتزع الغلاف الذي كان مشدوداً إليه وفضّه بعناية شديدة وبسطه أمامه على المنضدة، ثم أشعل النار في المدفأة ووضع ظاهر الظرف فوق اللهب، وما هي إلا لحظة حتى بدأت الكلمات تظهر على باطن الظرف، فصاح بوارو بلهجة المنتصر: انظر يا صديقي.

فنظرتُ وقرأت الكلمات الباهتة التي أظهرها اللهب على باطن الظرف، وكانت عبارة عن وصية كتبها السيد مارشي في الساعة الثانية عشر ظهر يوم ٢٥ آذار (مارس) يوصي بكل أمواله وممتلكاته لابنة أخيه الآنسة فيوليت، وقد شهد على صحة الوصية اثنان من تجّار القرية، فسألته: هل هذه الوصية قانونية؟

فأجاب: على قدر ما أعلم لا يوجد قانون يمنع الإنسان من كتابة وصيته بالحبر السرّي، ثم إن غرض المورّث واضح، والوارثة هي قريبته الوحيدة. لقد كان الرجل بارعاً إلى أقصى حد، وقد توقع كل خطوة يمكن أن يقوم عليها الباحث عن الوصية، فبعد أن اشترى وصيتين مطبوعتين وحمل بيكر وزوجته على التوقيع عليهما كتب وصية أخرى بخطّه بالحبر السري على باطن المظروف وحمل التاجرين بطريقة ما على التوقيع باسمَيهما تحت توقيعه، ثم شدّ المظروف إلى مفتاح الدرج. وإذا كانت ابنة أخيه قد أفادت من التعليم واستطاعت

بذكائها أن تميط اللثام عن حيلته، فهي تستحق الاستيلاء على ثروته.

فقلت: ولكنها لم تستطع إماطة اللثام عن حيلته، وليس من الإنصاف أن نعتبرها منتصرة، ولكن المنتصر هو العمّ العجوز فعلاً.

- لا يا عزيزي هيستنغز، لقد أثبتت الآنسة فيوليت ذكاءها وجدارتها، وأنها أفادت من تعليمها العالي، فقد أثبتت كل ذلك حين وضعت القضية بين يديّ، فاستحقت الثروة التي تركها عمها.

* * *

بنات الجنرال

رنّ جرس الهاتف فقال المتحدث: مرحباً، أهذا أنت يا بوارو؟

عرف هيركيول بوارو صوت الدكتور الشاب مايكل ستودارت، وكان يشعر بالميل إليه ويحبّ ابتسامته البشوشة التي يعتريها الحياء واهتمامه الساذج بقضاياه، كما كان يحترم فيه ضميره المهني.

قال الشاب بعد تردّد: ما كنت أحبّ أن أضايقك.

- هل يوجد ما يضايقك أنت؟

فأجاب مايكل ستودارت بارتياح ظاهر: نعم.

- حسناً، وماذا أستطيع أن أفعل من أجلك يا صديقي؟

- إنني... ولكن لا شك أنك ستجدني عديم الذوق إذا طلبت منك أن تأتي الآن، ولكنني في ورطة حقاً.

- حسناً، أنا قادم حالاً. هل أنت في البيت؟

- لا، أنا الآن في البيت رقم ١٧ بشارع كوننغتون. هل تستطيع أن تأتي حقاً؟ سأكون ممتناً جداً لك.

* * *

أخذ بوارو يمشي في الشارع المظلم وهو يحاول أن يتبيّن أرقام المنازل، وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً وأوى أغلب الناس إلى أسرّتهم، ولكن كانت لا تزال توجد أنوار تنبعث من بعض النوافذ. وعندما بلغ البيت رقم ١٧ فُتح الباب وظهر الدكتور ستودارت على عتبته قائلاً: أنت رجل كريم حقاً، هل لك أن تصعد؟

أفضى بهما درَج ضيّق إلى الطابق العلوي، وعلى اليمين في أعلى الدرج كانت غرفة كبيرة مفروشة بالأرائك والسجاد والوسائد وفيها عدد كبير من الزجاجات والكؤوس التي تحطّم بعضها، وبقايا لفائف التبغ منتشرة في كل مكان.

قال بوارو: يخامرني إحساس بأن هذه الغرفة شهدت حفلة صغيرة؟

فقال الطبيب: أجل، ولكنها لم تكن صغيرة بل كانت صاخبة.

- أكنت أنت من بين الحاضرين؟

- لا، وإنما أتيت مؤخراً بصفتي طبيباً.

- وماذا حدث؟

- هذا المسكن ملك للسيدة باشينس غريس.

- اسم جميل.

- لا يوجد أي جمال ولا أية جاذبية في السيدة غريس.

نعم، إنها دميمة، وقد تزوّجت مرتين أو ثلاث مرات، وفي هذه الأيام تُلقي بشبَاكها على رجل تشكّ في إخلاصه لها. لقد بدؤوا بتناول الشراب ثم أخذوا يتعاطون المخدّرات، الكوكايين بالذات، ومن خصائص هذا المخدر أن من يفرط في تعاطيه تتملّكه العصبية ويصبح سريع الغضب. وقد تشاجرت السيدة غريس مع صديقها، وهو رجل بغيض اسمه هوكر، وكانت النتيجة أنه انصرف، فانحنت السيدة غريس فوق النافذة وأطلقت عليه الرصاص من مسدس صغير.

- وهل أصابته؟

- لم تصِبه هو، فقد مرّت الرصاصة على بُعد بضعة أمتار منه، ولكنها أصابت رجلاً بائساً كان يفتّش في صندوق القمامة، وقد جُرح المسكين في ذراعه الأيمن وأثار الحيّ كله بهياجه، ثم جيء به إلى هنا وكان يفقد الكثير من دمه، ولهذا استدعوني.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- عالجته وضمّدت جرحه، وهو جرح غير خطير. ثم استطاعوا أن يهدّئوه بعد أن نقدوه عشرة جنيهات أو عشرين، وقد كانت فرصة لا بأس بها لذلك المسكين.

- وماذا عنك؟

- وجدت عملاً كبيراً في انتظاري، وجدت السيدة غريس في حالة عصبية شديدة فأعطيتها حقنة مهدّئة وذهبت

بها إلى فراشها، وكان لا بدّ أن أُعنى بفتاة في مقتبل العمر كانت غائبة عن الوعي، أما الباقون فقد بادروا بالفرار.

– ثم إنك وجدت متسعاً من الوقت كي تفكر في الموقف، أليس كذلك؟ هل أنت واثق مما تقول؟

– كل الثقة، لا يوجد أي خطأ، إنه الكوكايين ما في ذلك من شك، ثم إنني وجدت بعضاً منه في علبة صغيرة، وهم يتعاطونه عن طريق الشمّ. وقد تساءلت من أين يأتون به، ثم تذكرت الحديث الذي دار بيننا مؤخراً عن تلك الموجة من المخدرات.

قال بوارو: سوف يهتمّ رجال الشرطة بحفلة الليلة.

فقال الطبيب الشابّ بغير حماسة: هو ذلك.

نظر بوارو إليه من جديد باهتمام وقال: ولكن لماذا يضايقك هذا؟

– يوجد دائماً أبرياء يتورّطون في مثل هذه الأمور، وقد يؤثّر هذا على مستقبلهم تأثيراً بالغاً.

– هل ينحصر اهتمامك هذا في شخص السيدة غريس؟

– لا، لأنها امرأة مدمنة.

فقال بوارو بهدوء: إذَن في الفتاة؟

– أجل، ثم إن أمرها غريب. إنها لا تجد غضاضة فيما

فعلت، ولكنها في مقتبل العمر وغرّيرة، وقد خالطت ذلك الوسط لأنها أرادت أن تجاريهم فيما يعملون كي لا يقولوا عنها إنها من الجيل القديم.

فابتسم بوارو ابتسامة خفيفة وقال: هل سبق أن التقيت بتلك الفتاة قبل الليلة؟

فأومأ مايكل ستودارت بالإيجاب وقد احمرّ وجهه كما لو كان صبياً صغيراً ثم قال: لقد التقيت بها في مرتونشاير، في الحفلة التي أقامها هواة الصيد. أبوها جنرال متقاعد قادم من الهند سريع الغضب وله أربع بنات غريبات الأطوار، وهو أمر لا يثير الدهشة مع أب مثل أبيهم، يصادقن الشبّان الفاسدين الذين تزخر بهم المنطقة، فالناس هنا في هذه المنطقة يملكون أموالاً كثيرة ويبحثون عن الإثارة بكل أنواعها.

نظر بوارو إلى محدّثه بتفكير ثم قال: فهمت الآن لماذا استدعيتني. أنت تريد منّي أن أهتمّ بهذه القضية؟

- هل تقبل؟ إن واجبي يهيب بي أن أكافح كل هذا، ولكنني أودّ لو أستطيع الدفاع عن شيلا غرانت وأن لا أعرّضها لأية دعاية مكدرة.

- قد نستطيع أن نتدبر هذا. هل أستطيع أن أراها؟

- اتبعني.

وفي اللحظة التي غادرا فيها الغرفة أطلق بعضهم صرخة في غرفة مجاورة قائلاً: دكتور، أرجوك، إنني أكاد أُجَنّ!

فتبع بوارو الطبيب إلى غرفة نوم غريبة الشكل، وكانت فيها امرأة فوق الفراش ذات شعر مصبوغ باللون الأشقر وفي عينيها نظرة مبهمة تنطق بالعداء وقد راحت تتلوى، ثم قالت: إنظر إلى هذه الحيوانات المفترسة التي تحوم حولي يا دكتور، أُقسم لك أن ما أقوله صحيح، إنني أكاد أَجَنّ! أعطني حقنة أو أي شيء.

ترك بوارو الطبيب يُعنى بالمرأة ومضى ففتح باباً آخر أفضى به إلى غرفة نوم صغيرة قليلة الأثاث، ثم اقترب من الفراش على أطراف أصابعه فنظر إلى فتاة ذات شعر أسمر ووجه شاحب لا تزال في ريعان الشباب، وبمجهود كبير فتحت الفتاة عينيها وطوّحت بشعرها إلى الخلف، ثم قالت بصوت صبيانيّ مذعور: من أنت؟!

- لا تخافي يا آنسة.

- أين الطبيب؟

في تلك اللحظة دخل الطبيب الغرفة فقالت الفتاة بارتياح ظاهر: آه، أنت هنا؟ ولكن مَن هذا الرجل؟

- إنه أحد أصدقائي يا شيلا. كيف حالك الآن؟

- على أسوأ ما يكون. لا أدري لماذا تعاطيت تلك القذارة!

قال مايكل ستودارت بلهجة جافة: لو أنني مكانك لما تعاطيتها بعد ذلك.

- لن أفعل ذلك بعد الآن.

فسألها بوارو قائلاً: مَن الذي أعطاك إياها؟

اتسعت عيناها وتقلّصت شفتها العليا ثم قالت: لقد كنا هنا جميعاً وتعاطيناه كلنا، وكان رائعاً في البداية.

فقال بوارو بإصرار: ولكن مَن الذي أحضره؟

فهزت رأسها وأجابت قائلة: لا أدري. لعله توني، توني هوكر، ولكنني لا أعرف شيئاً آخر.

فسألها بوارو بهدوء قائلاً: هل هذه أول مرة تتعاطين فيها الكوكايين يا آنسة؟

أومأت بالإيجاب، فقال ستودارت بحدّة: حسناً، لتكُن الأخيرة.

- بالطبع، ولكن كان ذلك جميلاً.

فقال الشاب بحزم: اسمعي يا شيلا، أنا طبيب وأعرف ما أقول، إنني أعرف ناساً أدمنوا تعاطي الكوكايين، وأقسم لك أن منظرهم غير جميل. إن المخدّر يهدم كل مَن يتناوله، فلا تقربيه بعد ذلك أبداً. صدّقيني، ليس فيه أي جمال. ثم ماذا يقول أبوك لو عرف بالأمر؟

فصاحت شيلا بصوت حادّ قائلة: أبي؟ أبي؟

ثم راحت تضحك وتقول: إنني أتصوّر منظره. من الأفضل أن لا يعرف شيئاً وإلا أصابته نوبة.

- وله الحق.

في تلك اللحظة تأوّهت السيدة غريس من الغرفة المجاورة وقالت: أيها الطبيب، لو سمحت...

فخرج ستودارت وهو يزمجر، ثم قالت شيلا تسأل بوارو: من أنت؟ أنت لم تكن بين الحاضرين.

- أجل، أنا صديق للدكتور ستودارت.

- هل أنت طبيب أيضاً؟ ولكن لا يبدو عليك ذلك.

فأجاب كما لو كان يعلن عن الفصل الأول من مسرحية قائلاً: اسمي هيركيول بوارو.

وكانت لكلماته هذه التأثير المطلوب، فقد كان بوارو يشعر بشيء من الحزن حين يرى أنه غير معروف من الجيل الجديد المجرّد من الذكاء، ولكن كان يبدو أن شيلا قد سمعت عنه، فقد صُعِقت وراحت تنظر إليه بذهول.

* * *

ضاحية مرتونشاير واحدة من أفخم ضواحي لندن، فلا يؤمّها إلا القوم الأثرياء ومَن هم في سعة من العيش. ولم يجد هيركيول بوارو عناء كبيراً في أن ينزل ضيفاً عند إحدى صديقاته، وهي سيدة مسنّة دمثة الأخلاق كان همّها الأكبر هو التحدث عن جيرانها، وقد اضطُرّ بوارو إلى أن يستمع إلى قصة طويلة عن حركات وسكنات أناس كثيرين لا يهتمّ

بهم في قليل أو كثير قبل أن يستطيع أن يسأل عن الذين يهتمّ بهم بالذات.

قالت المرأة: آل غرانت؟ نعم، في ذلك البيت أربع فتيات، ولا يدهشني أن الجنرال المسكين لا يمكنه أن يتحكم فيهن؛ إذ ماذا يمكن لرجل أن يفعل مع أربع فتيات؟!

قال بوارو موافقاً: هذا صحيح.

- ومع ذلك فقد قال لي إنه كان يفرض على فرقته نظاماً صارماً، ولكن هؤلاء البنات أقوى منه. آه ثم آه، لم يكن الأمر هكذا في شبابي. لقد كان الكولونيل ساندیس العجوز قاسياً جداً مع بناته المسكينات.

استمرّت تروي أخباراً من أغوار الماضي حتى قالت: ومهما يكن فليس في بنات غرانت شيء غريب، كل ما في الأمر أنهن لا يكترثن بشيء، والحق أنهن في عالَم بغيض. نعم، إن المنطقة تغيّرت وقد أتى ناس من كل نوع للإقامة هنا الآن، فما من شيء يهمّ الآن إلا المال وتلك القصص التي يروونها. تقول مَن؟ أنتوني هوكر؟ نعم، أنا أعرفه، إنه شاب غير جذّاب ولكن يبدو أنه ثري جداً، وهو يأتي إلى هنا للصيد وإقامة حفلات من نوع خاص، هذا إذا صدّقنا ما يقال، ولكن الناس خبثاء جداً ويزعمون أن المرء لا بدّ أن يتناول الشراب أو يتعاطى المخدّرات كي يكون على علم بكل شيء، وقد قالوا ذلك عن السيدة لاركن، وعلى الرغم من أن تلك السيدة لا تهمّني إلا أنني واثقة أن الأمر معها ليس أكثر من موجة

سببها الغباء. إنها صديقة حميمة لصاحبك أنتوني هوكر، ولا ريب أنها تحقد على بنات غرانت لهذا السبب وتقول عنهن إنهن قليلات الأدب.

ثم أجابت على سؤال ألقاه بوارو قائلة: السيدة لاركن؟ من يستطيع اليوم أن يعرف الناس على حقيقتهم يا صديقي العزيز؟ يبدو أنها تجيد ركوب الخيل وأنها في سعة من العيش. لقد كان زوجها شخصاً ذا أهمية في المدينة، وقد مات عنها ولم يطلّقها، وهي هنا منذ فترة قصيرة. لقد جاءت بعد آل غرانت بشهور، وقد ظننت دائماً أنها...

وأمسكت المرأة العجوز عن الحديث فجأة وبقيت فاغرة الفم جاحظة العينين، ثم انحنت إلى الأمام بغتة وهوت على أصابع بوارو بقطّاعة ورق كانت تمسكها في يدها، ولم تعبأ بأنّة الألم التي أفلتت من بين شفتيه بل صاحت قائلة: لقد فهمت، فهمت لماذا أنت هنا أيها الرجل القصير الماكر. حدّثني بكل شيء.

- ولكن بمَ أحدّثك؟

شهرت السيدة كارمكايل القطاعة في وجهه لتضربه، ولكن بوارو تجنّب الضربة بمهارة في حين راحت تقول: هيركيول بوارو، إنني أرى شاربك يهتزّ فلا تطبق فمك كالمحارة. إن جريمة قتل هي التي جاءت بك إلى هنا طبعاً، ثم إنك تحاول أن تستخلص منّي المعلومات دون أيّ خجل. هل هي جريمة قتل حقاً؟ مَن مات في هذه الأيام الأخيرة؟ لم

يمُت أحد غير لويزا غيلمور، ولكنها ماتت وهي في الخامسة والثمانين وكانت تشكو من داء الاستسقاء، ويوجد ذلك المسكين ليو ستافرتون، فقد سقط من فوق جواده وهو الآن في الجبس. لا، لعل الذي جاء بك ليس جريمة قتل، ولكنني لا أتذكر أيّ حادثة سطو قريبة للأسف. بيريل لاركن؟ هل دسّت السم لزوجها؟ لعل شرودها راجع إلى وخز الضمير.

فصاح هيركيول بوارو قائلاً: سيدتي، إن الخيال يشطح بك بعيداً.

- لا تكُن أحمق، إنك تقتفي أثراً يا هيركيول بوارو. أيها الخبيث، ألا تريد أن تقول إذا كانت السيدة لاركن قتلت زوجها أم لا؟ لعل أنتوني هو القاتل صاحب حقيبة برايتون الذي يبحثون عنه؟

ثم رمته بنظرة تفيض بالأمل، ولكن بوارو ظلّ جامد الأسارير فعادت تقول: هيركيول بوارو، إذا بقيت تنظر إليّ هكذا دون أن تنطق فسوف أرميك بشيء.

فقال المخبر السري: تذرّعي بالصبر قليلاً.

* * *

لم يكُن بيت الجنرال غرانت بيتاً كبيراً، وكان يقع في منحدر تلّ ويحتوي على حظائر جميلة. دخل هيركيول بوارو غرفة مزدحمة بتماثيل مختلفة الأحجام ومناضد منخفضة فوقها نحاس مضغوط وعدد من الأفيال، وقد كانت جدرانها

مغطاة بمفارش جاءت كلّها من الهند.

وكان الجنرال غرانت يجلس في مقعد منخفض في وسط الغرفة وساقه مربوطة بضمادات وممدودة فوق طاولة أمامه. قال: النقرس، ألم تُصَب بالنقرس قط يا سيد بوارو؟ إنه يؤلمني جداً ويجعلني لا أحتمل أن أكلّم أحداً في أكثر الأحيان، وكل هذا جناه أبي عليّ؛ فقد كان يشرب البورتو طَوال حياته كما كان أبوه من قبله، وأنا الذي أدفع الثمن الآن. هل تريد أن تشرب شيئاً؟ أرجو أن تضغط الجرس.

أقبل خادم هنديّ يغطي رأسه بعمامة كبيرة، فأمره الجنرال أن يأتي بفنجان من القهوة، وعندما جاءه بما طلب قال يحدّث بوارو: يؤسفني أنني لا أستطيع مشاركتك شرب القهوة؛ فقد نهاني الطبيب عنها زاعماً أنها بمثابة سمّ لي. وإنني أتساءل: ماذا يعرف هؤلاء الأطباء؟ إنهم قوم خبثاء يحلو لهم أن يجبروا رجلاً مثلي على أكل السمك المسلوق.

وفي ثورة سخطه أتى الجنرال بحركة طائشة من ساقه جعلته يسبّ ويطلق صرخة تنمّ عن الألم الشديد، ثم طلب من بوارو أن يلتمس له عذراً قائلاً: عندما تأتيني النوبة تتملّكني العصبية ولا يستطيع أحد احتمالي، كما تسرع بناتي بالابتعاد عنّي، والحق أنني لا أستطيع أن ألومهنّ. لقد سمعت أنك تعرّفت بواحدة منهن، فهل هذا صحيح؟

– نعم، هذا صحيح، وكان لي هذا الشرف. لقد قيل لي إن بناتك كثيرات.

فأجاب الجنرال دون حماسة قائلاً: أربع بنات، ولا ولد، أربع بنات!

- قيل لي إنهن كلّهن جميلات.

- أجل، لا بأس بهن، ولكنني لا أعرف مكانهن غالباً. لا يمكن لأحد أن يحرس بناته اليوم، فقد أُتيحت لهن حرية أكثر من اللازم. وماذا يستطيع أن يفعل رجل وحيد؟ على كل حال أنا لا أستطيع أن أحبسهن.

- سمعت أنهن اكتسبن شهرة كبيرة في المنطقة.

- آه، بعض العجائز لا يحببنهن. لا يجب أن يُخدَع المرء بالظواهر، وقد كادت إحداهن أن تخدعني بمظهرها؛ إنها أرملة ظريفة اعتادت أن تأتيني وهي تموء كالقطة.

- آه يا جنرال، لا ريب أن حياتك كانت مهمة جداً.

غمز الجنرال بعينه ثم استطرد قائلاً: كان الأمر واضحاً جداً. لا أظن أن هذه المنطقة أسوأ من غيرها، ولكنها صاخبة أكثر من اللازم بالنسبة إليّ. لقد كنت أحب الريف عندما كان لا يزال ريفاً خالياً من تلك المحرّكات وذلك المذياع اللعين...

أعاد بوارو دفّة الحديث إلى أنتوني هوكر بهدوء، فقال الجنرال: هوكر، هوكر. أنا لا أعرفه.

- إنه ذلك الشاب ذو العينين المتقاربتين.

- لا تمنح ثقتك أبداً لشاب يا سيد بوارو.

- إنه صديق لابنتك شيلا، أليس كذلك؟

- صديق شيلا؟ لا أدري! إن بناتي لا يصارحنني بشيء أبداً.

وقطب الجنرال جبينه وحدق بعينيه إلى عينَي بوارو ثم قال: قُل لي يا سيد بوارو، ما الأمر بالضبط؟ لماذا أتيت إلى هنا؟

فأجاب بوارو قائلاً: أنا نفسي لا أدري، ولكن دعني أقُل لك إن ابنتك شيلا، بل لعل بناتك كلهن يصادقن شبّاناً فاسدين.

- كلهن يصادقن شبّاناً فاسدين؟! كنت أخشى ذلك إلى حدّ ما، فقد سمعت كلمة هنا وكلمة هناك.

ثم نظر إلى بوارو باستجداء قائلاً: ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ قل لي ما الذي أستطيع أن أفعله؟

فهزّ بوارو رأسه بحيرة في حين عاد الرجل يقول: ماذا يشين الشبّان الذين يصاحبونهن؟

فأجاب بوارو بسؤال آخر: ألم تلاحظ أن بعض بناتك يتملّكهن الاضطراب والإعياء والانفعال والاكتئاب وعدم الاستقرار في الآونة الأخيرة؟

- ما هذا يا صديقي؟! إنك تتكلم كما لو كنت طبيباً! لا، لم ألاحظ شيئاً من هذا.

فقال بوارو بوقار: هذا جميل.

- ولكن أين يؤدي بنا كل هذا؟

- إلى المخدّرات.

- ماذا؟!

كانت صرخة أكثر منها صيحة تعجّب، فقال بوارو: لقد حاول بعضهم أن يرغم ابنتك على إدمان المخدرات، والمرء يدمن الكوكايين بأسرع ما يمكن، يكفي لذلك أسبوع أو أسبوعان، وما إن يصبح مدمناً حتى يفعل أي شيء كي يحصل عليه. ولعلك تفهم من ذلك مدى الأرباح التي يجنيها من يقوم ببيعه.

أنصت بوارو إلى موجة السباب التي اندفعت من بين شفتَي الجنرال، وبعد أن فرغ الرجل من وصف ما ينوي أن يفعله بذلك الوغد إذا وقع بين يديه قال بوارو: عندما أُلقي القبض عليه سيسرّني أن أسلمه لك أيها الجنرال.

ثم نهض فتعثّرت قدمه برِجل المنضدة ولم يتجنّب الوقوع إلا بتشبّثه بساق الجنرال، ثم قال بارتباك: أرجو المعذرة، ولكن هل أستطيع أن أطلب منك أن لا تذكر شيئاً من هذا لبناتك؟

- ماذا؟ إنني سأنتزع الحقيقة منهن، نعم.

- ولكنك لن تجني شيئاً لأنهن سيكذبن عليك.

- ولكن يا سيدي...

- أؤكد لك أنه يجب أن تسكت، هذا أمر حيوي. هل

تفهم؟

- حسناً، كما تشاء.

كان مغلوباً على أمره، ولكنه لم يكن مقتنعاً.

* * *

كانت غرفة الجلوس في بيت السيدة لاركن تغصّ بالضيوف. كانت المضيفة امرأة طويلة ذات شعر أحمر، وكانت حدقتا عينيها الرماديتين سوداوين متسعتين. كانت تتنقل برشاقة ولكن بقلق ظاهر، وعلى الرغم من أنها كانت في الثلاثين من عمرها إلا أنه كان يبدو عليها أنها في الأربعين.

كان بوارو من المدعوّين بعدما قدّمته إلى المضيفة صديقةٌ للسيدة كارمكايل، وقد وجد نفسه بجانب فتاة تجلس بجوار النافذة. كانت الفتاة شقراء في مقتبل العمر، وكانت بشرتها وردية وتدلّ ملامحها على البراءة. وعلى الفور لاحظ بوارو حدّة نظرتها فقال: أنت الآنسة غرانت، أليس كذلك؟

فأومأت إليه برأسها ثم سألته فجأة قائلة: هل تعرف أختي؟

- أختك؟ نعم، إذن فأنت...

- أنا باميلا غرانت.

- وأين أختك اليوم؟

- في الصيد، ولن تتأخر عن المجيء.

- لقد التقيتُ بها في لندن.

- أعرف ذلك.

- هل روَت لكِ ما حدث؟

فأومأت باميلا غرانت بالإيجاب وقالت: هل كانت في ورطة؟

- ألم تقُل لك كل شيء؟

فهزّت رأسها وسألت قائلة: هل كان توني هوكر هناك؟

وقبل أن يتمكن بوارو من الردّ فُتح الباب ودخل هوكر وشيلا غرانت، وكانا يرتديان ملابس الصيد وعلى وجنة شيلا أثر طين. قالت: صباح الخير جميعاً. لقد جئنا لنشرب شيئاً من المرطبات لأن قِربة الماء الخاصة بتوني فرغت.

كانت السيدة لاركن قد تقدّمت منهما فقالت: أهذا أنت يا توني؟ كيف حال الصيد؟

وجذبته نحو أريكة بجوار المدفأة، ورأى بوارو الشاب يلتفت ويلقي نظرة إلى شيلا قبل أن يتبع مضيفته. وكانت شيلا قد رأت بوارو فترددت لحظة ثم اقتربت من النافذة، وقالت فجأة: إذن أنت الذي أتيت إلى البيت أمس، أليس كذلك؟

- هل أخبرك أبوك؟

فهزت رأسها وقالت: لا، ولكن الخادم الهندي وصفك، وقد تساءلت...

فصاحت باميلا قائلة: هل ذهبت لزيارة أبينا؟

- نعم، فإن لنا أصدقاء مشترَكين.

فقالت باميلا: أنا لا أصدق شيئاً من ذلك.

- لا تصدّقين ماذا؟ ألا تصدّقين أن لي ولأبيك أصدقاء مشترَكين؟

فاحمرّ وجه الفتاة وقالت: لا تكن سخيفاً، إنما كنت أعني أنك لم تذهب لزيارة أبي لهذا السبب.

ثم تحولت إلى شيلا وقالت لها: لماذا لا تقولين شيئاً يا شيلا؟

فاضطربت الفتاة وقالت: ألم... ألم يكن لذلك علاقة بتوني هوكر؟

- ولأي سبب؟

فاحمرّ وجه شيلا وأسرعت تنضمّ إلى المدعوين الآخرين، ثم قالت باميلا بحدة: إنني لا أحب توني هوكر لأن فيه شيئاً كئيباً، وفي السيدة لاركن كذلك، انظر إليهما معاً.

نظر بوارو إلى حيث تشير فرأى رأس هوكر قريباً من رأس مضيفته، ولم تلبث أن رفعت صوتها قائلة: ولكنني لا أستطيع الانتظار، إنني أريده الآن حالاً.

فقال بوارو وهو يبتسم ابتسامة خفيفة: إن النساء لا يمكن أن ينتظرن أبداً.

ولكن باميلا غرانت لم تنطق. كانت قد خفضت رأسها وراحت تطبق أصابعها وتبسطها من جديد بحركات عصبية، وقال بوارو: إنك تختلفين كثيراً عن أختك يا آنسة.

فرفعت رأسها بحدة غير مبالية بما في ذلك من ابتذال وقالت: سيد بوارو، ما هذا الشيء الذي أعطاه توني لشيلا فغيّرها كل هذا التغيير؟

فحدق إلى عينيها وقال: هل حدث أن تعاطيت الكوكايين يا آنسة؟

- آه، لا. أهذا هو الأمر إذن؟ كوكايين؟ ولكن أليس من الخطر تعاطيه؟

عندئذ انضمّت شيلا إليهما وقالت: عن أي شيء تتكلّمين وتقولين إنه خطير؟

فأجاب بوارو قائلاً: إننا نتحدث عن تأثير المخدّرات، ذلك الموت البطيء... إنها تدمّر ما هو صحيح وطيّب في الإنسان.

صاحت شيلا غرانت صيحة مكتومة، فقال بوارو: أظن أن الدكتور ستودارت ذكر لك كل ما يسبّبه ذلك الموت في الإنسان الحيّ. إنه سريع التأثير ويتعذر التخلّص منه، والشخص الذي يستفيد من هذا التدمير ومن آلام الغير يكون وحشاً يتغذى بالدم.

ثم انصرف بوارو تاركاً الفتاتين مصعوقتين، وبينما هو

يبتعد سمع باميلا تصيح بأختها قائلة: شيلا!

ثم سمع تلك الأخيرة تهمس بصوت يكاد لا يُسمَع قائلة: في القِربة.

حيّا هيركيول بوارو السيدة لاركن ثم استأذنها بالانصراف، وفي البهو فوق الطاولة رأى بندقية صيد وسوطاً والقِربة وعليها حرفان هما «أ هـ»، فأمسك بوارو القِربة وهزّها برفق فلم يسمع صوت السائل، فرفع غطاءها فوجدها مملوءة بمسحوق أبيض.

* * *

وقف هيركيول بوارو في شرفة بيت السيدة كارمكايل يتحدث إلى فتاة وكان يقول بحماسة: أنت في مقتبل العمر يا آنسة، وأنا واثق أنك كنت لا تعرفين خطورة ما تفعلين، لا أنت ولا أخواتك. إنكن تتغذّين بدم إخوانكن من البشر.

سرَت الرعشة في بدن شيلا ثم قالت وهي تبكي: إنه كما تقول بالفعل، ولم أفهم بشاعته قبل تلك الليلة التي تحدّث إليّ فيها الدكتور ستودارت في لندن. لقد كان يتكلم بتأثّر وإخلاص، وعندئذ رأيت بشاعة ما أفعله، ولكنه كان قبل ذلك مجرّد لهو وتسلية.

فسألها بوارو قائلاً: والآن؟

- الآن سأفعل ما تريد. سوف أتكلم مع الأخريات، ولا أظن أن الدكتور ستودارت يريد أن يخاطبني بعد ذلك.

- على العكس يا آنسة، نحن لن نتوانى عن مساعدتك بقدر ما نستطيع لكي تبدئي الحياة من جديد. ولكن يوجد أمر مهمّ، يوجد شخص يجب تدميره دون تأخّر، وأنت وأخواتك فقط تستطعن ذلك. إن شهادتكن أنتن يمكن أن تثبت جرمه وتدينه.

- هل تعني... أبي؟

- إنه ليس أباك يا آنسة. ألم أقُل لك إن هيركيول بوارو يعرف كل شيء؟ لقد تعرفت على صورتك بكل سهولة، فأنت شيلا كيلي التي أُرسِلت إلى إصلاحية الأحداث بتهمة السرقة من المحلات التجارية منذ بضع سنوات، وعندما أُطلق سراحك كان يوجد رجل يدعو نفسه الكابتن غرانت في انتظارك، وقد عرض عليك أن تتظاهري بأنك ابنته نظير مبلغ كبير ومتعة أكبر. كل ما كان يتعين عليك هو إدخال الثلج، أي المسحوق الأبيض، عند أصدقائك زاعمة أن شخصاً آخر أعطاك إياه، وهذا هو نفس الحال مع أخواتك. هيا يا آنسة، يجب أن يحاكَم ذلك الرجل وأن يُدان.

* * *

نظر مايكل ستودارت إلى بوارو مدهوشاً ثم قال: الجنرال غرانت؟!

- نعم، كل هذا العرض لم يكن إلا خدعة؛ التماثيل والمناضد ذات النحاس المضغوط والخادم الهندي وداء النقرس... كل هذا إخراج رائع. إن المسنّين الذين بلغوا من

العمر أرذله هم فقط الذين يتألمون من داء النقرس، فهو داء لا يصيب الآباء الذين لا تتجاوز أعمار بناتهم العشرينات. وعلى الرغم من ذلك أردت أن أتأكّد، فعندما هممت بالخروج تعثّرت فاصطدمت بقدم المريض، وكان ذلك الأخير مضطرباً بسبب ما أحدثته به فلم يلحظ ذلك. كان يجب أن يتألم ألماً شديداً بسبب النقرس ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. إن الفكرة في حدّ ذاتها لم تكن سيئة، إنه جنرال متقاعد قادم من الهند ومريض عصبيّ المزاج إلى حدّ بعيد، ولكنه أقام في وسط مستواه المعيشي أعلى من مستوى ضابط متقاعد، فكل مَن فيه أغنياء. ثم مَن يشتبه في أربع فتيات ظريفات يتدفقن مرحاً وحياة؟ وحتى إذا ساءت الظروف ووقع أي شيء فسوف يعتبرهن الجميع ضحايا.

- ولكن ماذا كان يدور في رأسك عندما ذهبت لزيارة ذلك المجرم؟ هل كنت تريد تحذيره؟

- نعم، أردت أن أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك، ولم أنتظر طويلاً؛ فقد صدرت الأوامر للفتيات، وكان يجب أن يكون أنتوني هوكر أحد ضحاياهم وكبش الفداء، وكان على شيلا أن تحدّثني عن القربة التي تركَتها في البهو، ولكنها لم تجد الجرأة على ذلك، ثم لفتت باميلا نظرها بأن أهابت بها قائلة بلهجة آمرة: شيلا!

نهض مايكل ستودارت وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ثم قال: سأولي تلك الفتاة عنايتي الخاصة. طالما اهتممتُ

بالمراهقين الذين يتعاطون المخدّرات، وإذا نحن درسنا حالة أولئك الفتيات فسوف نجد بلا شك...

فقاطعه بوارو قائلاً: يا صديقي العزيز، أنا أحترم قدراتك كثيراً، ولكنني لا أشك لحظة واحدة في أنك ستجد الدليل على نظريتك فيما يتعلق بشيلا كيلي.

- وكذلك الفتيات الأخريات.

- هذا جائز، ولكن الفتاة الوحيدة التي أنا متأكد منها هي شيلا. إنك ستروّضها دون أيّ شك، ثم إنها تحبّك.

فاحمرّ وجه مايكل ستودارت بشدة وقال: لا تكن أحمق يا بوارو.

* * *

المحتويات

جثة على الثلوج ٥
لغز التحف المسروقة..... ٦٥
عش الدبور ٨٩
الدليل المزدوج..... ١٠٧
الوصية المفقودة..... ١٢٧
بنات الجنرال ١٥١